

سُورَةُ الْفَجْرِ

حِينَ يَنْبِثُ النُّورُ مِنْ أَنْقَاضِ
الطُّغْيَانِ وَتَعُودُ النَّفْسُ إِلَى رَبِّهَا

تأليف: رَدَّادُ السَّلَامِيِّ

سُورَةُ الْفَجْرِ

حِينَ يَنْبُتُ النَّوْرُ مِنْ أَنْقَاصِ الطُّغْيَانِ
وَتَعُودُ النَّفْسُ إِلَى رَبِّهَا

تأليف: رَدَّادُ السَّلَامِيِّ

سُورَةُ الْفَجْرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة منهجية

من فجر الكون إلى فجر القلب

ليست سورة الفجر حديثاً عن الصباح فحسب، بل عن انكشاف الحقيقة بعد طول احتجابها؛ عن اللحظة التي ينحسر فيها ليل القوة الكاذبة، وتطلع من وراء ركام التاريخ شمس العدل التي لم تغب قط، وإن غابت عن أعين المقهورين. إنها سورة تبدأ بِقَسَمٍ بالفجر، وتنتهي ببناء النفس المطمئنة، وكأنها ترسم بين المطلع والختام رحلة الإنسان كلها: من النور الذي يشق أستار الليل في الآفاق، إلى النور الذي يشق أستار الخوف والاضطراب في الأعماق؛ من فجر تراه العيون، إلى فجر يستقر في القلب؛ من يقظة الكون إلى طمأنينة الروح.

وسورة الفجر، على قَصَر آياتها، بناءً قرآنياً هائل، نتداخل فيه حركة الزمن مع حركة التاريخ، ومشهد الحضارات الساقطة مع خفايا النفس البشرية، وصورة اليتيم المحروم مع صورة الطاغية المتجبر، وضيق الرزق مع سعة الرؤية، ودك الأرض مع مجيء الملائكة، ثم تنتهي الرحلة كلها عند باب الرضا: ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾. وليس هذا الانتقال ثباتاً عابراً للصور، بل هندسة

معنوية دقيقة، تكشف أن فساد الحضارات يبدأ غالباً من فساد الموازين في النفوس، وأن عاداً وثمود وفرعون لم يسقطوا في لحظة العقوبة وحدها، بل بدأ سقوطهم يوم اختلَّ تصورهم للقوة، ويوم صار الإنسان عندهم وسيلة، وصارت النعمة أداة استعلاء، وصار الضعيف شيئاً لا يُرى.

تفتتح السورة بقسمٍ مهيب: ﴿وَالْفَجْرِ﴾ و﴿لَيْلٍ عَشْرِ﴾ و﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾. وفي هذا المطلع نتقدم الأزمنة المقدسة والآيات الكونية لتشهد على حقيقة آتية. الفجر شاهد، والليالي شاهدات، والشفع والوتر شاهدان، والليل في لحظة انصرافه شاهد. وكأن الوجود كله قد تحول إلى محكمةٍ كبرى، يُستدعى فيها الزمن نفسه للإدلاء بشهادته: لا ليل خالد، ولا ظلام مستقر، ولا قوة تستطيع أن تمنع الفجر من أداء مهمته. قد يطول الليل حتى يظن الخائف أنه صار قدراً، لكن الفجر يأتي من الجهة التي لم يكن الطغاة يحرسونها؛ لأن الطغيان يستطيع أن يغلق أبواب المدن، لكنه لا يستطيع أن يغلق أبواب السماء.

ثم نتقلنا السورة من مشهد الزمن إلى خرائب التاريخ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾. هنا لا يورد القرآن الماضي للتسلية، ولا يعرض آثار الأمم بوصفها متاحف للسمت، بل يحول التاريخ إلى وعيٍ أخلاقي. فالأمم لا تفتنى لأن آجالها المادية انتهت فحسب، وإنما تفتنى حين تتحول القوة في أيديها إلى

فساد، والعمران إلى كِبَر، والسلطان إلى استباحة للإنسان. ولهذا جمعت
السورة عاداً وثمود وفرعون تحت وصف جامع: ﴿الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ﴾
فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ. فالطغيان هو الجذر، والفساد هو الثمرة، والعذاب هو
الحصاد الذي ينضج ببطء، وإن بدا للطاغية أنه بعيد.

وإذا كانت السورة قد عرضت طغيان الجماعات والحضارات، فإنها تنزل
بعد ذلك إلى الخلية الأولى التي يتكون فيها الطغيان: النفس البشرية حين تسيء
فهم النعمة والابتلاء. يقول الإنسان إذا أكرمه ربه ونعمه: ﴿رَبِّي أَكْرَمَنِي﴾،
ويقول إذا ضيق عليه رزقه: ﴿رَبِّي أَهَانَنِي﴾. وهنا تكشف السورة مغالطةً
شديدة الرسوخ في الوعي الإنساني: أن الغنى دليل رضا، وأن الفقر علامة
سخط، وأن قيمة الإنسان تُقرأ مما بين يديه لا مما في قلبه. فتأتي الكلمة القرآنية
القاطعة: ﴿كَلَّا﴾؛ كلا، ليس المال شهادةً نهائيةً على الكرامة، وليس ضيق
الرزق حُكماً بالإهانة؛ فكلاهما امتحان، ولكن الإنسان بدل أن يسأل: كيف
أؤدي حق النعمة؟ يسأل: كم أملك؟ وبدل أن يتأمل ما تصنعه المحنة في
روحه، يقرأها بوصفها انتقاصاً من مكانته.

ولا تكتفي السورة بتصحيح هذا التصور نظرياً؛ لأنها تعلم أن الأفكار
الفاصلة لا تبقى حبيسة الذهن، بل تهبط إلى السلوك، وتحول إلى علاقات
ومؤسسات ووقائع موجعة. فمن ظن أن المال هو الكرامة، نظر إلى الفقير كأنه

أقلَّ قدرًا، ومن توهم أن الثراء برهان الاصطفاء، رأى في المحروم متهماً لا مظلوماً. ولذلك جاء التعقيب كاشفاً: ﴿بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ﴾ وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينَ ﴿وَتَأْكُلُونَ التَّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا﴾ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا. هكذا ينتهي الخلل في معنى الكرامة إلى قسوة اجتماعية: يُهْمَلُ الْيَتِيمُ، ويُتْرَكُ الْمِسْكِينُ، ويُتَمَمُّ الميراث، ويصير المال محبوباً لذاته لا لما يقام به من حق.

ثم تهدم السورة مسرح الوهم كله بمشهد القيامة: ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾. الأرض التي تنازع الناس عليها، وسفكوا الدماء من أجل شبرٍ منها، وجعلوا امتلاكها عنواناً للسيادة، تُدَكُّ فلا يبقى فيها مرتفع يختال ولا منخفض يحتجى. ويحضر الأمر الإلهي، وتجيء الملائكة صفوفاً، ويؤتى بجحهم، فيتذكر الإنسان؛ غير أن التذكر الذي يأتي بعد انقضاء زمن الاختيار لا يصنع نجاة. إنها المعرفة المتأخرة، والحقيقة حين تصير عياناً بعد أن كانت إيماناً ممكناً، والندامة حين تستيقظ في زمن انتهى فيه العمل.

لكن السورة لا تنتهي عند النار ولا عند الحسرة. إنها، بعد أن تعرض أشد مشاهد الانهيار، تفتح فجأةً باباً يطل على سكينة لا تشبه شيئاً من اضطراب الدنيا: ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي﴾ وَادْخُلِي جَنَّتِي. كأن السورة تقول إن

النجاة من مصائر عاد وثمود وفرعون لا تبدأ من امتلاك قوةٍ تضاهي قوتهم، بل من بناء نفسٍ لا يفتنها ما فتنهم؛ نفسٌ تعرف ربها في السعة والضيقة، فلا يبطرها العطاء ولا يهزمها المنع، ولا تقيس منزلتها بموازن الأسواق، ولا تستمد أمنها من وفرة المال، وإنما تسكن إلى ربها حتى يصبح الرجوع إليه تمام أمنيتهما. وسنعمد في هذه الرحلة منهجاً يجمع بين التفسير والتدبر، دون أن يحل أحدهما محل الآخر. سنبدأ بدلالة الآيات في لغتها وسياقها ونظمها، ونقف عند وحداتها الموضوعية، وانتقالاتها المشهدية، وعلاقتها بالمقصد الجامع للسورة، ثم نفتح من المعنى أبواب التأمل التي تمس القلب والواقع والحضارة والإنسان. ولن نجعل التأمل قطعةً مع مقصود القرآن، ولا نحمل الألفاظ رموزاً بعيدة لا يسندها السياق، بل سننطلق من المعنى الثابت إلى أثره الحي، ومن الدلالة إلى الهداية، ومن خبر الأمم الماضية إلى السنن التي ما تزال تعمل في حاضر البشر.

وسنتأمل السورة بوصفها وحدةً متكاملة، لا آياتٍ متناثرة: فالقسم بالفجر يمهّد للحديث عن أقوال الطغيان، وسريان الليل يهيئ لمشهد الحضارات التي مضت، ومصائر تلك الحضارات تفضي إلى كشف منشأ الفساد في النفس، وفساد النفس يظهر في ظلم اليتيم والمسكين، وظلم الضعفاء يقود إلى الحساب، والحساب ينتهي إلى مفترق المصير: حسرة نفسٍ أضاعت حياتها، أو عودة

نفسٍ اطمأنت إلى ربها. وهكذا يتناسك البناء كله كأنه نهر واحد: يبدأ من فجر السماء، ويمر بأطلال الطغاة، ويعبر أودية النفس، وينتهي في جنة الله.

إن سورة الفجر لا تعد المؤمن بأن الليل لن يأتي، بل تعلمه أن الليل يسري. ولا تقول له إن الطغاة لا يبنون المدن، بل تخبره أن أعظم الأبنية قد تصبح شاهد قبرٍ على أصحابها. ولا تنفي عنه الابتلاء في الرزق، بل تحرره من إساءة تفسيره. ولا تعده بأن الطريق إلى الطمأنينة سيكون خالياً من فقد، بل تكشف له أن النفس قد تبلغ رضاها العميق وهي تعبر عالماً مكتظاً بالخوف؛ لأن الطمأنينة ليست غياب العاصفة، وإنما حضور الله في القلب حين تعصف الأشياء.

هذه سورة توضع الحضارة أمام مرآة، والغني أمام ميزان، والفقير أمام معنى، والمظلوم أمام وعد، والطاغية تحت مرصاد، والإنسان كله أمام آخر الطريق. وبين أول قَسَمٍ وآخر نداء تتردد حقيقة واحدة: أن الله لا يغيب عن التاريخ، ولا يضيع عنده أنين الضعفاء، ولا يتحول إمهاله إلى إهمال، وأن كل ليلٍ مهما اشتد سواده يحمل في أعماقه اعترافاً صامتاً بأن الفجر آتٍ.

الفصل الأول

﴿وَالْفَجْرِ﴾: حين يقسم الله بولادة النور

يبدأ القرآن هنا بكلمة واحدة، ولكنها تفتح في الوعي أفقاً كاملاً: ﴿وَالْفَجْرِ﴾. لا وصف طويل، ولا مقدمة تمهد للشهد؛ إنما يأتي الفجر ذاته، حاضراً بنوره الهادئ، كأن القارئ كان واقفاً في قلب الليل ثم انشق أمامه الأفق. والفجر ليس ضوءاً مكتملاً، بل بداية الضوء؛ ليس نهائياً استقر سلطانه، وإنما أول خيط أبيض يعلن أن عرش الظلمة قد بدأ يهتز. وفي اختيار هذه اللحظة للقسم سرٌّ عميق؛ لأن العبرة ليست فقط بظهور النور بعد اكتماله، وإنما بتلك البداية الدقيقة التي لا يكاد يلتفت إليها أحد، مع أنها تحمل مصير الليل كله.

في الأفق، يبدو الليل قبل الفجر أشد ما يكون تماسكاً. تمتد الظلمة على الأرض حتى يظن الرائي أن الكون قد أغلق نوافذه، وأن السواد صار حقيقةً نهائية. لكن حركة خفية تجري في الأفق، لا يسمع لها صوت، ولا تستأذن من الليل في الدخول. يولد الخيط الأول ضعيفاً في الظاهر، ثم لا يلبث أن يتسع حتى ينسحب الليل كله. وهذه واحدة من أعظم سنن الله: أن التحولات الكبرى قد تبدأ في صمت، وأن النور لا يحتاج في بدايته إلى أن

يكون واسعاً كي يكون صادقاً؛ يكفي أن يكون نوراً، ففي طبيعته وعد بالامتداد.

والقسم بالفجر يوقظ في القلب معنى الرجاء، لكنه ليس رجاءً عاطفياً ساذجاً يتعاضى عن كثافة الظلام. القرآن لا يتكر الليل؛ بل سيقسم به بعد قليل: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾. إنه يعترف بوجوده، ويثقله، وبامتداده، لكنه يرفض أن يمنحه صفة الخلود. الظلام موجود، لكنه ليس سيد الزمن؛ والطغيان واقع، لكنه ليس خاتمة التاريخ؛ والمحنة قد تحاصر الإنسان، لكنها لا تملك أن تكتب السطر الأخير من مصيره. فالسطر الأخير لله، والله يقسم بالفجر.

ولهذا يبدو افتتاح السورة بالفجر مدخلاً مناسباً لما سيأتي من حديث عن عاد وثمود وفرعون. فتلك القوى كانت في زمانها كالليل حين يملأ الأفق: جبروتٌ يحجب ما وراءه، وعمرانٌ يفتن الناظرين، وسلطانٌ يوحي بأن التاريخ قد توقف عند أبوابه. كان الضعفاء يرون ما يملك الطغاة ولا يرون ما يديره الله؛ يرون الأعمدة الشاهقة ولا يرون الريح المقبلة، ويرون الصخور المنحوتة ولا يرون الصيحة، ويرون الأوتاد والجنود ولا يرون البحر وهو ينتظر كلمة الله. لكن الفجر كان محتباً في قلب المشهد، وكانت نهاية الطغيان تنمو في الموضع الذي ظن الطغاة أنهم أحكموا إغلاقه.

وللفجر معنى آخر يلامس الإنسان من داخله. فكما أن للكون ليلاً وفجراً، فإن للقلب ليله وفجره. قد يتراكم على النفس غبار الغفلة حتى تنسى وجهتها، وقد يطول بها الحزن حتى تتوهم أن الفرح كان حياةً تخص الآخرين، وقد تستبد بها الحيرة حتى لا تعود تميز الطريق من التيه. ثم تأتي آية، أو دعوة صادقة، أو لحظة انكسار بين يدي الله، فتشق في داخلها خيطاً من النور. وربما لا يتغير العالم من حولها في تلك اللحظة، لكن شيئاً جوهرياً يكون قد تغير فيها: لقد بدأ الفجر.

والتحول الداخلي الصادق لا يحدث دائماً في صورة ضجيج ظاهر. كثير من الفجر الروحي يبدأ باعتراف خافت: أخطأت. أو دعاء متردد: يا رب. أو دمعة لا يراها أحد. أو نفور مفاجئ من ذنب كان القلب يألفه. وقد يستهين الإنسان بهذه البدايات لأنها صغيرة، غير أن الله الذي يقسم بالفجر يعلمنا ألا نحتقر أول الضوء. فمن حفظ خيط النور في قلبه، وحماه من رياح الانتكاس، ورعاه بالطاعة والصدق، رآه يمتد حتى يصير نهراً.

والفجر في حياة المؤمن ليس مرةً واحدة. هناك فجر الهداية بعد الضلال، وفجر التوبة بعد الذنب، وفجر البصيرة بعد الحيرة، وفجر السكينة بعد القلق، وفجر الفرح بعد البلاء، وفجر اللقاء بالله بعد رحلة العمر. وكل فجر منها يختصر

قانوناً ربانياً واحداً: أن الله يخرج الحي من الميت، والنور من الظلمة، والأمل من الموضع الذي ظن الإنسان أن كل شيء فيه قد انتهى.

وقد أقسم الله بالفجر ليعيد للزمن قداسه في وعينا. فالزمن في القرآن ليس وعاءً فارغاً تمر فيه الحوادث، بل ميدان تنزل فيه الآيات، وتتشكل فيه المصائر، وتفتح فيه أبواب القرب. والفجر موعد الصلاة، وموطن الشهود: ﴿إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾. إنه الوقت الذي يفصل فيه الإنسان عن دفء فراشه ليشهد أن الله أكبر من راحته، وأن النداء الإلهي أحق بالإجابة من نداء الجسد. وفي هذه المجاهدة اليومية تربية خفية على التحرر، فن استطاع أن ينتصر على نفسه عند الفجر، بدأ يومه بإعلان أن روحه ليست عبداً لعاداتها.

وصلاة الفجر ليست مجرد فريضة تقع في أول النهار، بل صورة مصغرة عن فلسفة الإيمان كلها: خروج من ظلمة النوم إلى نور اليقظة، ومن السكون إلى الحركة، ومن الغياب عن العالم إلى الحضور بين يدي رب العالمين. يتوضأ المؤمن كأنه يغسل بقايا ليله، ثم يقف في الصلاة بينما الناس نيام، فيكون أول ما يفتح به وعيه كلام الله. وما أعمق الفرق بين يوم يبدأ بضجيج الدنيا، ويوم يبدأ بالسجود؛ بين قلب تفتححه الأخبار قبل أن يدخله الذكر، وقلب يستقبل نور الوحي قبل أن تستولي عليه ظلال الوقائع.

إن الفجر يربّي المؤمن كذلك على الثقة بالسنن التي لا تتعجل. فلا أحد يقف عند الأفق مطالباً الشمس أن تسرع، ولا يظن أن تأخرها دقائق يعني أنها لن تأتي. نحن نثق بحبيبتها لأن الله أودع في الكون نظاماً لا يتخلف. لكننا في شؤون حياتنا نفقد هذا اليقين أحياناً؛ نستبطئ الفرج، ونضيق بطول الطريق، ونزيد أن تتحول البذرة إلى شجرة في ليلة، وأن تنهار عروش الباطل بمجرد أن نكتشف بطلانها. ويأتي الفجر ليعلمنا أن النور يتقدم وفق حكمة، وأن البطء ليس توقفاً، وأن ما لا نراه قد يكون في طريقه إلينا.

ليس كل تأخر حرماناً، ولا كل احتجاب غيباً. الشمس في جوف الليل لم تنطفئ، وإنما كانت تضيء جهةً أخرى، وتسير بأمر ربها نحو مواعدها. وكذلك أقدار الله: قد تغيب حكمتها عن نظر الإنسان، لكنها لا تخرج عن علم الله وتديبره. وما يبدو في لحظته انكساراً كاملاً قد يكون إعداداً لفجر لم تتضج ساعته بعد. ويوسف عليه السلام لم يكن يرى من قاع الحب صورة الخزان، ولم يكن يسمع في ظلمة السجن وقع الخطوات التي ستقوده إلى التمكين؛ لكن الفجر كان يسير إليه من داخل الأحداث التي بدت كلها ليلاً.

والمؤمن لا يصنع رجاءه من فراغ، بل من معرفته بالله. إنه لا يقول إن الفجر سيأتي لأن الحياة جميلة دائماً، فالحياة قد تكون قاسية؛ ولا لأن البشر عادلون، فقد يمعنون في الظلم؛ ولا لأن موازين الأرض تتصف الضعيف،

فكثيراً ما نتحاز إلى الأقوى. لكنه يقول إن الفجر سيأتي لأن الله رب الفجر، ورب التاريخ، ورب القلوب، ولأن الظلم مهما اتسع لا يتحول إلى حق، والباطل مهما طال لا يكتسب الخلود.

وفي لفظ ﴿الْفَجْرِ﴾ نفسه معنى الشق والانفلاق؛ فالفجر يفجر الظلمة، أي يشقها ويخرج منها. والنور هنا لا يأتي من طريق ممهد، وإنما يولد من قلب العتمة، كأن الظلام الذي أراد أن يخفيه صار الرحم الذي خرج منه. وهكذا يصنع الله كثيراً من المنح: يفجر الماء من الصخر، والفرج من الكرب، والوعي من الألم، والقوة من الانكسار. وليس المقصود أن الألم خير في ذاته، ولا أن الظلم يُمدح لأنه قد يوقظ المقاومة، بل المقصود أن قدرة الله لا تعجز عن تحويل ما أراد به الآخرون هدم الإنسان إلى مادة في إعادة بنائه.

كم من إنسان لم يعرف أعماقه إلا حين انطفأت من حوله الأنوار المستعارة، ولم يعرف صدق أصدقائه إلا حين أظلم طريقه، ولم يعرف قرب الله إلا حين ابتعد عنه كل من ظنهم قريبين. إن بعض المعارف لا تُولد في الظهيرة؛ لأنها تحتاج إلى سكون الليل كي يُسمع صوتها. ثم إذا أشرقت النفس بعد ذلك، لم تعد كما كانت؛ فقد صار نورها معرفةً مجرّبةً، لا فكرةً مستعارة.

والقسم بالفجر دعوة إلى أن يكون الإنسان نفسه فجرًا في موضعه: أن يدخل على الحزين بكلمة تفتح نافذة، وعلى المظلوم بموقف يرد إليه شعوره

بالكرامة، وعلى الجاهل بمعرفة لا تتعالى عليه، وعلى التائه بدلالة لا تزيده ضياعاً. ليس مطلوباً من كل إنسان أن يغير العالم وحده، لكن بإمكانه ألا يزيده ظلاماً. ورب كلمة صادقة كانت في قلب إنسانٍ أول الفجر، ورب يد امتدت إليه في لحظة يأس فمنعته من السقوط، ورب موقف عدلٍ صغير هزم في داخله ليلاً عظيماً.

غير أن النور الحقيقي ليس ضجيجاً عن النور، بل أثرٌ منه. وقد يكثر إنسان من الحديث عن الحق بينما يجعل حضوره في حياة الناس عبئاً، وقد يرفع شعارات الرحمة وقلبه قاسٍ على الضعفاء، وقد يزعم أنه يحارب الظلام وهو يحمل في داخله بعض أخلاقه. وسورة الفجر ستكشف بعد قليل أن الاختبار ليس في ادعاء الإيمان بالكرامة، وإنما في إكرام اليتيم؛ وليس في التغني بالعدالة، وإنما في الحض على طعام المسكين؛ وليس في ذم الطغاة البائدين، وإنما في تطهير النفس من البذرة التي صنعت طغيانهم.

وهنا يتصل فجر البداية بالنفس المطمئنة في خاتمة السورة. فالنفس لا تبلغ الطمأنينة دفعةً واحدة، بل يبدأ فيها الضوء خيطاً، ثم يتسع بالإيمان والمجاهدة والذكر والرضا. وكل طاعة نافذة، وكل توبة فلقٌ صغير في جدار الظلمة، وكل يقين شروق. حتى إذا جاءها النداء الأخير: ﴿ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾، كانت قد تدرت طوال عمرها على الرجوع؛ ترجع إليه في الخوف، وفي

الحاجة، وفي الفرح، وفي الحيرة، حتى صار الرجوع الأخير امتداداً طبيعياً لكل رجوع سبقه.

﴿وَالْفَجْرِ﴾: قسمٌ من الله، ووعدٌ يسري في دماء الزمن، ورسالة إلى كل قلب أثقله الليل: لا تجعل طول الظلمة حجةً على غياب النور. لا تنس قدرة الله بما تراه الآن، ولا تحاكم النهاية من منتصف الطريق. ثمة فجر يتكون وراء الأفق، وثمة رحمة تعمل في المستور، وثمة تدبير لا تسمع خطاه. وما عليك إلا أن تحرس في قلبك جهة الشرق، وأن تبقى مستعداً لاستقبال الضوء حين يشاء الله أن يقول لليلك: كفى.

الفصل الثاني

﴿وَلَيْالٍ عَشْرٍ﴾: حين تصبح الأزمنة مواسم لصناعة الإنسان

﴿وَلَيْالٍ عَشْرٍ﴾ وَالشَّفْعُ وَالْوَتْرُ وَاللَّيْلُ إِذَا بَسَرَ ﴿هَلْ فِي ذَلِكَ

قَسَمٌ لِّذِي حِجْرِ﴾

بعد أن أقسم الله بالفجر، ذلك الميلاد اليومي للنور، أقسم بليالٍ عشر،
فانتقل بنا من اللحظة الكونية المتكررة إلى موسم مخصوص من مواسم الفضل.
وأكثر المفسرين على أن المراد بها الليالي العشر الأولى من ذي الحجة، وهي أيام
عظيمة اجتمع فيها من وجوه العبادة ما لا يكاد يجتمع في غيرها؛ فيها الصلاة
والذكر والصيام والصدقة والحج، وفيها يوم عرفة، ثم يوم النحر. وقيل غير
ذلك، غير أن المعنى الجامع يظل قائماً: أن الله يختار من الأزمنة أوقاتاً
يضاعف فيها أبواب الخير، ويهيئ للإنسان مواسم يستدرك بها ما فاتته، ويوقظه
من استرسال الأيام المتشابهة إلى أيام ذات معنى كثيف.

إن الزمن في التصور القرآني ليس سطحاً مستوياً تتساوى أجزاؤه في
القيمة والدلالة. كل ساعة من العمر وعاء للأمانة، لكن الله جعل في جريان
الأيام مواطنَ تزداد فيها الرحمة قريباً، ويتسع فيها مجال الطاعة، وتتعاظم فيها
فرصة العودة. هناك ليلة خير من ألف شهر، ويوم أكل الله فيه الدين، وأشهر

حرم، وساعة من الجمعة، وأسحار تفتح فيها أبواب المناجاة، وفجر تشهده الملائكة. وهذا التفاوت لا يعني أن الله بعيد في بعض الأزمنة قريب في بعضها؛ تعالى الله عن ذلك، وإنما يعني أن الإنسان الغافل يحتاج إلى علامات بارزة في طريقه، وإلى مواسم تهز رتبته، وتخرجه من العيش المتكرر إلى الحياة المستيقظة.

فالعادة من أشد ما يرهق روح الإنسان؛ لا لأنها شر في ذاتها، بل لأنها قد تسلب الأشياء دهشتها. يمر الصباح فلا يشعر بأنه نعمة متجددة، ويدخل الليل فلا يرى فيه سترًا وسكينة، ويقرأ الآيات التي طالما قرأها فلا يسمع نداءها الأول، ويؤدي العبادة بجسد يحفظ حر كاتها وقلب غاب عن أسرارها. وكلما تكررت النعمة دون وعي، تحولت في الحس إلى شيء مضمون، وما كان مضموناً في الوهم قلّ شكره. فتأتي المواسم الربانية لتكسر هذا البلود، وكأنها تقول للإنسان: توقف قليلاً؛ ليست الأيام متشابهة كما تظن، وليس عمرك ركاماً من الساعات، بل بين يديك فرصة قد تغير المصير.

إن الله لا يحتاج إلى زمان ليقرب من عباده، لكن العبد هو الذي يحتاج إلى ميقات يجمع فيه شتاته. نحن موزعون بين هموم الرزق، وصخب الأخبار، وذكريات الأُمس، ومخاوف الغد، ورغبات تتناسل كلها أشبعت واحدة منها. نعيش بأجسادنا في اللحظة، بينما نتبعثر أرواحنا على الأزمنة والأمكنة.

وحين تأتي الأيام الفاضلة، فإنها لا تضيف إلى قدرة الله شيئاً، بل تعيد الإنسان إلى نفسه، وتمنحه فرصة أن يجمع أجزاء قلبه ثم يضعها بين يدي ربه. ولهذا لم يقل القرآن: وعشر ليالٍ، بل قال: ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾، فجاءت نكرةً تحمل في جرسها مهابةً واتساعاً، كأن عظمتها أكبر من أن تحصرها الأوصاف. إنها ليالٍ يعرفها أهل الإيمان لا بأرقامها وحدها، بل بما يُفتح فيها من منافذ السماء إلى القلب. قد تمر على الغافل فلا تزيد في عمره إلا عدداً، وتمر على المستيقظ فتغسل داخله، وتعيد ترتيب أولوياته، وتخفف سلطان الدنيا عليه. فالزمن لا يصنع الإنسان وحده؛ إنما تصنعه الطريقة التي يسكن بها الزمن.

وكم من شخص عاش أعواماً طويلة، لكنها مرت فوق قلبه دون أن تدخل إليه، وكم من إنسان عاش لحظة صدق واحدة فكانت أوسع من سنواته كلها. ليست قيمة العمر في امتداده العددي فقط، بل في مقدار ما حمل من وعي، وما أنجز من خير، وما صحح من علاقة بالله والناس. وقد يخرج المرء من موسم عظيم كما دخله، لأن جسده عبر الأيام ولم تعبر الأيام إلى قلبه؛ يصوم ولا يتحرر من شهوة الأذى، ويذكر الله بلسانه ولا يسلم الناس من قسوته، ويقف في المناسك ثم يعود إلى المظالم القديمة كأن العبادة كانت رحلةً خارج أخلاقه.

إن القسم بالليالي العشر يضعنا أمام سؤال جوهري: ماذا نصنع بالأزمنة التي يختارها الله لنا؟ هل نستقبلها بوصفها مناسبات اجتماعية، أم مواعيد

لإعادة بناء الذات؟ هل نكثر فيها من الأعمال لأن الناس يكثرُونَ، أم لأن القلب أدرك فقره؟ هل نعد الحسنات، أم نبحث عن التحول الذي ينبغي أن تتركه الحسنة فينا؟ فما أقسى أن يخرج الإنسان من موسم الرحمة بمظاهر جديدة وقلب قديم؛ وأن يضيف إلى سجله عملاً، دون أن يحذف من طبعه ظملاً أو كبراً أو حقداً.

العبادة في القرآن ليست حركةً معزولة عن تكوين الشخصية، بل فعل إعادة صياغة مستمر للإنسان. الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، والصيام يوقظ التقوى، والزكاة تطهر النفس والمال، والحج مدرسة للتجرد والمساواة والذكر. فإذا بقيت الفحشاء، وغابت التقوى، واستحكم الشح، وتعاظمت الأناء، فثمة مسافة خطيرة بين صورة العبادة وحقيقتها. وليست المشكلة في العبادة، حاشا لله، وإنما في قلبٍ يؤدي شكلها ثم يغلق أبوابه دون أثرها.

ومن هنا نتصل الليالي العشر بمقصد السورة كله؛ لأن السورة ستحدثنا عن أقوام امتلكوا القوة ولم يمتلكوا البصيرة، وعن إنسان يقيس كرامته بما أُعطي من مال، وعن مجتمع لا يكرم اليتيم ولا يحض على طعام المسكين. والأزمنة الفاضلة لا تُمنح للإنسان كي يهرب فيها من واقعه، بل ليعود إليها أكثر عدلاً ورحمةً ومسؤولية. إن مناجاة الله التي لا تجعلنا أرحم بعباده تظل

بحاجة إلى مراجعة، والسجود الذي لا يكسر كبر النفس لم يصل بعد إلى تمام معناه.

أيام الحج: الخروج من ضيق الذات إلى سعة العبودية

إذا كانت الليالي العشر هي عشر ذي الحجة، فإن السورة تستحضر من وراء لفظها مشهد الحج كله: ذلك الحشد البشري الهائل الذي يخلع فروق الأرض عند باب السماء. يخرج الناس من أوطانهم وأسمائهم الاجتماعية ورتبهم وأزيائهم، ويلبسون ثياباً متشابهة، كأنهم يتدربون في الحياة على هيئة الرحيل منها. لا يعود الغني معروفاً بفاخر ثيابه، ولا صاحب المنصب محاطاً بمظاهر سلطانه؛ الجميع يلبن نداءً واحداً، ويمضون إلى رب واحد، ويقفون في صعيد واحد.

والحج في جوهره هدمٌ رمزي للأوهام التي ستفضحها سورة الفجر. فالإنسان يقول إذا وسع الله عليه: ﴿رَبِّي أَكْرَمُنِ﴾، ويظن أن كثرة المال ترفعه فوق غيره، ثم يأتي الحج لينزع عنه الشارات المصنوعة، ويعلمه أن الكرامة لا تُحمل في الثياب، ولا تُقاس باتساع الملك، وأنه سيقف بين يدي الله كما يقف أفقر الناس: عبداً لا يملك من أمره شيئاً.

في عرفة تتساقط المسافات بين البشر. لا يسأل الموقف عن أرصدة الناس ولا عن ألقابهم، وإنما يكشف حاجةً واحدةً تسكن الجميع: الحاجة إلى المغفرة. وهنا تظهر حقيقة الإنسان التي تغطيها الحضارة عادةً بطبقات من الزينة والادعاء؛ فهما ارتفع شأنه، يظل كائنًا فقيرًا إلى ربه، يحمل في قلبه مواضع لا يشفيها المال، وذنبًا لا يحوها النفوذ، وخوفًا لا تطمئنه الحراسات. وحين يرفع يديه بالداء، يعود إلى فطرته الأولى؛ مخلوقًا يعرف أخيرًا أنه لا ينجو بقوته، بل برحمة الله.

وليس المقصود أن الإنسان لا قيمة له، بل إن قيمته الحقيقية تبدأ حين يعرف عبوديته. فعرفة العبد بحدوده ليست إهانةً له، وإنما تحرير من عبودية ما سواها. من عرف أنه عبد لله لم يحتج أن يكون سيدًا متأهلًا على الناس، ولم يستمد عظمته من إذلال الضعفاء، ولم يبن أمنه على الخوف الذي يزرعه في القلوب. الطغاة الذين ستذكرهم السورة لم يهلكوا لأنهم كانوا أقوياء، بل لأنهم أساءوا فهم القوة، فتوهوا أنها تحوّلهم تجاوز الحدود. أما العبودية لله فتمنح القوة ميزانًا، وتحوّل دون أن يستحيل العمران إلى أداة بطش.

في الأيام العشر تتعاقب عبادة المقيم مع عبادة الحاج. هذا يطوف بالبيت، وذاك يطوف قلبه حول ذكر الله؛ هذا يقف بعرفة، وذاك يقف على باب التوبة؛ هذا يقدم هديه، وذاك يذبح في نفسه شهوةً أو كبرياء. وهكذا تنتزع

مناسك القرب على الأمة كلها، فلا يكون البعيد عن مكة بعيداً عن المعنى. فالطرق إلى الله لا تضيق بمكان، وإن خص الله بعض الأمكنة بفضل؛ والقلب الصادق يستطيع أن يحمل نصيبه من الموسم حيث كان.

﴿وَالشَّفْعَ وَالْوَتْرَ﴾: وحدة الخالق وتكامل المخلوقات

ثم يأتي القسم: ﴿وَالشَّفْعَ وَالْوَتْرَ﴾. وقد تعددت أقوال المفسرين في المراد بالشفع والوتر، فقليل: الشفع يوم النحر، والوتر يوم عرفة، وقيل: الشفع الخلق والوتر الله سبحانه؛ لأن المخلوقات تقوم على التزاوج والتعدد، والله واحد لا شريك له. وقيل غير ذلك من المعاني التي تتسع لها الآية دون جزم بما لم يقيم عليه دليل قاطع. وفي هذا الاتساع نفسه إحياء بأن الوجود كله، في أفرادهِ وأزواجه، في وحداته وثنائياته، داخل في نظام لا يخرج عن تدبير الله.

ما حولنا يتحرك بين الشفع والوتر: ليل ونهار، ذكر وأنثى، أرض وسماء، بحر وبر، شمس وقر، ثنائيات لا تتصارع في أصل خلقها، بل تتكامل لتقيم توازن العالم. ثم وراء هذا التعدد كله إرادة واحدة، وحكمة واحدة، ورب واحد. الكون كثير في مظاهره، لكنه موحد في مصدره؛ متنوع في أشكاله، لكنه منقاد في جوهره لأمر الله.

والإنسان نفسه شفعٌ من وجوه كثيرة: جسد وروح، عقل وقلب، خوف ورجاء، ضعف وقوة، دنيا وآخرة. ولا يستقيم أمره إذا ألغى جانباً لحساب آخر. فمن غذى جسده وأجاع روحه تحول إلى كائن واسع الشهوة ضيق المعنى، ومن تحدث عن الروح ثم أهمل سنن الجسد خالف التوازن الذي خلقه الله عليه. ومن اعتمد العقل وحده جف وجدانه، ومن استسلم للعاطفة وحدها اضطرب حكمه. والهداية ليست سخفاً لأبعاد الإنسان، بل جمعها في عبودية متناسقة.

والحضارات كذلك لا تقوم بعنصر واحد. تحتاج إلى القوة، لكنها تحتاج إلى الضمير الذي يوجه القوة؛ تحتاج إلى العمران، لكنها تحتاج إلى الإنسان الذي يُبنى قبل الجدران؛ تحتاج إلى المعرفة، لكنها تحتاج إلى الحكمة التي تمنع المعرفة من التحول إلى آلة دمار. وعاد وثمود وفرعون امتلكوا شطراً من المعادلة وأهملوا شطرها الآخر؛ بنوا القوة وهدموا الأخلاق، فصار العمران ضخماً والإنسان صغيراً، واتسعت البلاد وضائق الرحمة، وتقدمت الأدوات وتوحشت الغايات.

إن الشفع حين ينفصل بعضه عن بعض يتحول التوازن إلى اختلال. المال بلا شكر فتنه، والقوة بلا عدل طغيان، والعبادة بلا خلق صورة ناقصة، والحرية بلا مسؤولية فوضى، والمسؤولية بلا حرية استعباد. والقرآن يعيد دائماً

وصل ما يفصله الإنسان: يصل الإيمان بالعمل، والصلاة بالزكاة، وحق الله بحقوق العباد، والذكر بإطعام المسكين، والعبادة بإعمار الأرض. فلا نجاة بروحانية تنسحب من آلام الناس، ولا بإصلاح مادي ينسى أن للإنسان روحاً تسأل عن المصير.

أما الوتر فيرد التعدد كله إلى مركزه: الله الواحد. وما لم يكن للإنسان مركز واحد تتجمع عنده ولاءاته، عاش ممزقاً بين آلهة كثيرة، وإن لم يسمها آلهة: إله المال، وإله المكانة، وإله الجمهور، وإله الشهوة، وإله الخوف. يرضي هذا فيغضب ذاك، ويزن وجهه لهذا، ويخفي حقيقته عن ذاك، حتى يفقد نفسه بين الوجوه التي صنعها للناس. أما التوحيد فيجمعه؛ لأنه يحرره من الحاجة إلى أن يكون نسخاً متعددة ترضي عالماً لا يرضى.

ومن عرف الواحد هان عليه تفرق الأسباب. لا يعني ذلك أن يهملها، بل ألا يؤهلها. يأخذ بالدواء ويعلم أن الشافي الله، ويسعى إلى الرزق ويعلم أن الرازق الله، ويقاوم الظلم ويعلم أن النصر من عند الله، ويحب الناس دون أن يجعل مصيره معلقاً برضاهم. وهنا تنشأ الطمأنينة التي ستختتم بها السورة: طمأنينة النفس التي خرجت من ازدحام الأرباب الوهمية إلى وحدة الوجهة، فلم تعد موزعة بين خوف الأرض ورجاء السماء.

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسِرٌ﴾: الظلام الذي يحمل في داخله نهايته

لم يقل الله: والليل إذا استقر، بل قال: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسِرٌ﴾. واللفظ يصور الليل كأنه كائن يرحل، يمضي بخطوات خفية، ويطوي معه ستائر الظلام. إن الليل، في أكثر لحظاته مَكْفَافَة، ليس ساكناً، إنه يسري نحو نهايته. وما يبدو للعين ثباتاً، تكشف الحقيقة أنه حركة عابرة.

وهذه الآية من أرق آيات الرجاء وأعمقها. فهي لا تقول للمبتلى إن ليله وهم، ولا تطالبه بإنكار ألمه، وإنما تخبره أن هذا الليل نفسه يسير. قد لا ترى حركته لأن تحولات الزمن لا تُقاس بنبض القلب، لكن كل لحظة تمر تقطع جزءاً من عمر المحنة. إنك لا تقف في النقطة ذاتها وإن خُيل إليك ذلك؛ فالله يدبر، والأيام تنضج، والنفوس تتعلم، والأقدار تتهيأ للساعة التي أُجلت إليها.

كثير من اليأس ينشأ من وهم السكون؛ من اعتقاد الإنسان أن اللحظة الحاضرة ستستمر إلى الأبد. حين يحزن يتوهم أن الحزن صار طبيعته النهائية، وحين تضيق به الحال يظن أن أبواب العالم كلها أغلقت، وحين يرى طاعيةً متسلطاً يحسب أن القوة استقرت له بلا نهاية. لكنه لو رأى الأشياء بعين السنن لأدرك أن كل حالة زمنية تحمل تاريخ فنائها. الجرح يتغير، والقوة تهرم، والإمبراطوريات تتآكل من داخلها، والقلوب تتقلب، والليل يسري.

وحقّ حين لا ينتهي البلاء بالطريقة التي أرادها الإنسان، فإن الله قد يخرج الإنسان نفسه من البلاء إن لم يُخرج البلاء من حوله. قد تبقى الظروف، لكن القلب الذي يواجهها يتغير، كان ضعيفاً فصار بصيراً، وكان مضطرباً فصار موصولاً بالله، وكان يرى المحنة نهايةً فتعلم أن يجعلها معبراً. وهذه صورة أخرى من سريان الليل: أن يفقد الظلام سلطانه عليك قبل أن ينسحب من أفقك.

والليل ضروري كذلك ليظهر معنى الفجر. ليست الحكمة في الألم أنه ألم، لكن التجربة البشرية تعرف الأشياء بأضدادها؛ فالذي لم يعرف الحيرة قد لا يدرك نعمة اليقين، والذي لم يذق الوحشة قد لا يعرف جلال الأنس بالله، والذي لم يمر بالانكسار قد يسيء فهم قوته وينسبها إلى نفسه. غير أن المؤمن لا يطلب البلاء، ولا يتكلف الحزن، بل يسأل الله العافية؛ فإذا جاءه ما يكره، حاول أن يخرج منه بمعرفة أكثر نقاءً وقلب أقل تعلقاً بالأوهام.

ويمكن أن يُقرأ سريان الليل في ضوء تاريخ الطغيان الذي ستعرضه السورة. طغيان عاد كان ليلاً، لكنه سرى. واستعلاء ثمود كان ليلاً، لكنه سرى. وملك فرعون وجنوده وأوتاده كان ليلاً، لكنه سرى. لم تخلد أمة بقوتها، ولم يوقع التاريخ عقداً أبدياً مع طاغية. كلهم مروا من فوق الأرض،

ثم مضت الأرض تحمل آثارهم ولا تحملهم، وصارت قصورهم مادة للعبرة بعد أن كانت مصدراً للرعب.

إن الطاغية يرى الحاضر وحده؛ ولذلك يغتر. يرى الجنود أمامه ولا يرى الأجيال التي ستأتي بعده، ويرى السجون ممتلئةً بخصومه ولا يرى الصفحة التي سيُكتب فيها اسمه بعد زوال سلطانه، ويرى صمت الناس ولا يسمع حركة التاريخ تحت قدميه. ولو سمع قول الله: ﴿وَاللَّيْلُ إِذَا يَسِرُّ﴾ بقلب يعقل، لعلم أن ملكه ليس قصراً ثابتاً، بل ليلٌ مسافر، وأن كل ساعة تمضي به تقربه من الأفق الذي سيبتلعه.

وفي هذه الآية عزاء للمظلوم، لكنه عزاء يريه على الصبر العامل، لا الانتظار الكسول. فعرفة أن الليل يسري لا تعني أن ينام الإنسان داخل الظلام، بل أن يحفظ مصباحه، ويهيئ نفسه للفجر، ويقاوم ما يستطيع من أسباب العتمة. النبي ﷺ كان موقناً بوعد الله، ومع ذلك خطط وهاجر وبني الجماعة وتحمل الأذى. والثقة بالتدبير الإلهي لا تلغي التكليف البشري، بل تمنحه المعنى؛ فنحن نعمل لأن الفجر ممكن، ونثبت لأن الليل ليس أبدياً.

﴿هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ﴾: العقل الذي يمنع صاحبه من السقوط

بعد هذه الأقسام يأتي السؤال: ﴿هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ﴾. والحِجْر هو العقل، وُسْمِي بذلك لأنه يحجر صاحبه، أي يمنعه من السفه والاندفاع إلى ما يضره. وليس العقل في القرآن مجرد قدرة على الحساب أو جمع المعلومات، بل قوة أخلاقية تردع الإنسان عن الباطل، وتربط المعرفة بالمسؤولية. فقد يكون المرء شديد الذكاء، واسع الحيلة، لكنه ليس من أولي الحِجْر؛ لأنه يستخدم ذكائه في تبرير شهوته أو توسيع ظلمه.

إن السؤال القرآني لا يطلب جواباً لفظياً، بل يستثير العقل كي يستيقظ: أليست هذه الأقسام كافية لمن يملك قلباً متديراً وعقلاً مانعاً؟ الفجر، والليالي العشر، والشفع والوتر، والليل إذا يسر؛ كلها شواهد على النظام والتحول، والتقدير. من تأملها أدرك أن الوجود ليس فوضى، وأن الزمن ليس مهملاً، وأن وراء حركة النور والظلام حكمة لا يغيب عنها شيء.

و«ذو الحِجْر» لا يكتفي بالنظر إلى الظواهر، بل يعبر منها إلى دالاتها. يرى الفجر فلا يقول فقط: ظهر الضوء، بل يسأل: من شق الظلام؟ ويرى تعاقب المواسم فلا يكتفي بحساب الأيام، بل يسأل عما أودعه الله فيها من فرصة. ويرى الليل يرحل فيفهم أن دوام الأحوال وهم. ثم ينظر إلى الأمم القوية التي

سقطت، فلا تخدعه المظاهر الجديدة للطغيان؛ لأن الأسماء تتغير، أما السنن فلا تتغير.

العقل الذي لا يمنع صاحبه من الكبر عقل فقد بعض وظيفته، والمعرفة التي لا تثمر خشية قد تتحول إلى حجة على صاحبها. عاد لم تكن جاهلة بأسباب البناء، وثمود لم تكن عاجزة عن هندسة الجبال، وفرعون لم يكن ضعيفاً في تدبير الملك؛ كانوا يمتلكون أنواعاً من المعرفة، لكنهم افتقدوا الحجر الذي يمنع القوة من التحول إلى فساد. تقدم العقل الأداتي عندهم، وتأخر العقل الأخلاقي؛ عرفوا كيف يبنون، ولم يعرفوا لماذا ينبغي ألا يظلموا؛ سيطروا على الأشياء، وفقدوا السيطرة على شهوات نفوسهم.

وهنا يضع القرآن معياراً عظيمًا للحضارة: ليست الحضارة أن يعرف الإنسان كيف يفعل ما يريد فحسب، بل أن يعرف ما الذي يحق له أن يريده. ليست العظمة في القدرة وحدها، وإنما في الميزان الذي يوجهها. فقد تمنح المعرفة البشرية أدوات تقرب المسافات، لكنها لا تضمن أن تحمل عبرها الرحمة بدل الكراهية؛ وقد تنتج وسائل تحفظ الحياة، ثم تستخدمها قوى الطغيان في توسيع الموت. لذلك تحتاج القوة إلى عقل ذي حجر، لا إلى ذكاء متحرر من الضمير.

ويسأل القرآن: ﴿هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ﴾، لأن الآيات لا تنقص، وإنما قد ينقص المتلقي الذي يرى ولا يعتبر. الكون مفتوح، والتاريخ مكشوف، والمصائر تتكرر، لكن الإنسان قادر على المرور بكل ذلك دون أن يتعلم. يزور أطلال الطغاة ليلتقط صورة، ثم يعود ليحمل في نفسه أخلاقهم؛ ويقرأ عن ظلمهم، ثم يمارس نصيبه الصغير من الظلم في بيته أو عمله؛ ويلعن استكبار فرعون، ثم يضيّق بمن يخالفه في رأي.

ليست العبرة أن نعرف أين عاش فرعون، بل أن نعرف أين يمكن أن يولد في نفوسنا. وليست النجاة في أن نُحسن إدانة الطغاة بعد موتهم، بل أن نمنع بذرة الطغيان حين تستيقظ في داخلنا: حين نملك قدرةً على ضعيف، أو نخترق حقاً، أو نرفض الاعتذار لأن كبرياءنا لا يحتمل الاعتراف، أو نظن أن حاجات الآخرين أقل شأنًا من رغباتنا. فكل طغيان كبير بدأ أولاً من نفس لم يحجرها عقل، ولم يردعها إيمان.

وهكذا تنتهي مقدمة السورة الكونية وقد أُعد القلب للدخول إلى متحف الحضارات المنهارة. الفجر أعلن أن الظلام لا يخلد، والليالي العشر كشفت أن الزمن ميدان للامتحان والاغتنام، والشفع والوتر أظهرنا وحدة النظام وتكامله، والليل إذا يسر قرر أن كل قوة عابرة تسير إلى نهايتها، ثم جاء النداء إلى ذي الحِجْرِ كي يقرأ ما وراء الصور.

والآن سيفتح القرآن صفحة التاريخ، لا ليخبرنا عن موتى انقضوا، بل عن
سنن ما تزال حية. سنقف أمام عاد ذات العماد، وثمود الذين جابوا الصخر
بالواد، وفرعون ذي الأوتاد؛ أمام قوى امتلكت من أسباب البقاء ما جعل
سقوطها يبدو مستحيلاً، ثم سقطت لأن الله لم يجعل العمران حصانة للظلم،
ولا القوة عذراً للطغيان، ولا الزمن ملجأ دائماً للفسدين. وسيظهر لنا أن
الليل، مهما شاد لنفسه من أعمدة ونحت من جبال ونصب من أوتاد، يظل
ليلاً يسري.

الفصل الثالث

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾: حين يتحول التاريخ إلى محكمة للطغيان

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ ﴿إِرمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ ﴿الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ ﴿وَتُمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ﴾ ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ﴾ ﴿الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ﴾ ﴿فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ﴾ ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمُ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبَلِاصِدٍ﴾

بعد أن أقسم الله بالفجر، وباليالي العشر، وبالشفع والوتر، وبالليل حين يسري، انتقلت السورة من كتاب الكون إلى كتاب التاريخ؛ من نور يتسلل في الأفق إلى حضارات كانت تملأ الأفق قوةً وهيبةً، ثم انطفأت. وكأن الأقسام السابقة قد هيأت العقل لاستقبال هذه الحقيقة: إذا كان الليل نفسه لا يثبت، فكيف ثبتت دولة الظلم؟ وإذا كان الزمن يسوق كل شيء إلى أجله، فكيف يتوهم الطغاة أنهم يستطيعون الوقوف خارج قوانين الفناء والحساب؟

لا يستحضر القرآن الماضي ليحبسنا فيه، ولا ليملاً الذهن بحكايات العابرين، بل ليستخرج من وراء الأشخاص والأمكنة سنناً لا تعبر. فالأسماء تاريخية، لكن المرض متجدد؛ والأبنية قد انهارت، لكن الشهوة التي أقامتها

قد تنهض في زمان آخر، وفرعون مات غريقاً، غير أن الفرعونية تظل احتمالاً يسكن كل قوة انفصلت عن الحق، وكل سلطة جعلت الإنسان مادةً لاستمرارها.

ولهذا لا ينبغي أن نقرأ قصة عاد وثمود وفرعون كأن بيننا وبينها قروناً تجمينا من تكرارها. المسافة الزمنية لا تمنح أحداً حصانةً أخلاقية. إننا نبتعد عنهم في التاريخ، لكننا قد نقرب منهم في السلوك؛ وقد نرفض أسماءهم بينما نحمل بعض منطقتهم؛ وقد نتعجب من طغيانهم ثم نمارس في دوائرنا الصغيرة ما يشبهه: في بيت لا يُسمع فيه صوت الضعيف، أو منصب يظن صاحبه أنه فوق المسألة، أو مال يُتخذ أداة لإذلال المحتاج، أو فكرة يُكره الناس عليها لأن صاحبها لا يطبق وجود المختلف.

إن القرآن حين يعرض الطغاة لا يكتفي بتسجيل سقوطهم، بل يعلمنا أن نكشف الطاغية قبل أن يكتمل بناؤه في داخل الإنسان.

﴿أَلَمْ تَرَ﴾: رؤية البصيرة لما غاب عن البصر

تبدأ الآيات بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾. والمخاطب لم يشاهد عاداً بعينه، لكن القرآن عبّر عن العلم بالرؤية؛ لأن الخبر إذا جاء من

الله صار في اليقين أوضح من المشاهدة. فالبصر قد يخطئ في تفسير ما يرى، وقد تخدعه الزينة والقوة، أما خبر الله فلا تدخله ريبة.

وهذا من أعظم ما يصنعه الوحي في العقل: يمنحه ذاكرة تتجاوز عمره الفردي. فالإنسان وحده قصير التجربة؛ يولد فيجد القوة قائمة، فيتوهم أنها كانت منذ الأزل وستبقى إلى الأبد. أما القرآن فيمد بصره عبر القرون، ويفتح له خزائن المصائر، ليرى أن ما يبدو ثابتاً في لحظة ليس إلا مشهداً عابراً في تاريخ طويل.

كم من سلطان عاش الناس تحت ظله حتى ظنوا أن الشمس لا تشرق إلا بإذنه، ثم صار خبره سطرّاً في كتاب! وكم من قصر كانت ترتجف عند أبوابه القلوب، ثم دخله الغبار بلا استئذان! وكم من صوت ملأ الأرض تهديداً، ثم ابتلعه الصمت، وبقيت وراءه عبرة تقول: إن من ظن أنه أكبر من الإنسان، صغره التاريخ؛ ومن حاول أن يملأ الوجود بذاته، خرج منه ضيقاً لا يكاد يرى.

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ ليست سؤالاً عن معرفة معلومة، بل دعوة إلى تغيير زاوية النظر. فالناس يرون عادةً ما فعله الطغاة بالمستضعفين، أما القرآن فيدعوهم إلى رؤية ما فعله الله بالطغاة: ﴿كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾. ومن عاش أسير اللحظة رأى يد الجلال ولم يرفوقها قدرة الله، ورأى السجن ولم ير نهايته، ورأى

الدم ولم ير الحساب. لكن الإيمان يضيف إلى المشهد ما غاب عن الحس: أن للظلم أجلاً، وأن وراء الفعل البشري فعلاً إلهياً يعيد الموازين إلى نصابها، ولو بعد حين.

وليس في هذا دعوة إلى السكون أمام الظلم، بل تحرير للفاعل المؤمن من اليأس. فهو يقاوم لأنه مأمور، ويثق لأن الله حاضر، ولا يقيس الحق بنتيجته العاجلة. قد يُهزم العادل في معركة، لكنه لا يتحول بذلك إلى مبطل؛ وقد ينتصر الطاغية في جولة، لكنه لا يكتسب بالنصر شرعية أخلاقية ولا حصانة من النهاية. فالحق لا يستمد حقانيته من موازين القوة، والقوة لا تطهر الباطل من باطله.

﴿فَعَلَ رَبُّكَ﴾: العناية التي تحضر في موضع الرهبة

قال تعالى: ﴿كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ﴾، ولم يقل: كيف فعل الله فحسب. وإضافة الرب إلى المخاطب تحمل في قلب مشهد العقوبة معنى الرعاية والطمأنينة. فالذي أهلك عاداً ليس قوةً مجهولةً في الكون، بل ربك؛ الذي يراك ويريك ويحفظ دعوتك ويعلم ما تلقى. وكأن الآية تقول: لا تنظر إلى ضخامة عاد وحدها، بل انظر إلى ربك الذي لم تعجزه عاد.

إن الإنسان حين يواجه قوةً متجبرة قد تصغر في عينه كل المعاني إلا معنى البطش. يرى السلاح والجنود والمال والإعلام، فيمتلئ وعيه بحجم الخصم حتى يكاد ينسى حجم القضية التي يحلها، بل ينسى أن الله لا يُقاس بشيء. تأتي الإضافة ﴿رَبُّكَ﴾ لترد المؤمن من فزع المقارنة الأرضية إلى سكينة العبودية: هؤلاء مهما عظموا خلقٌ محدود، وأنت لست متروكاً في مواجهتهم، بل لك رب يعلم ويرى ويقدر.

وهذا المعنى لا يمنح المؤمن وعداً شخصياً بأن ينجو دائماً من الأذى في الدنيا؛ فقد يُبْتلى ويُصاب ويُقتل، وقد يرى بعينه شيئاً من غلبة الباطل. لكنه يمنحه ما هو أعمق من السلامة العاجلة: اليقين بأن الظلم لن يصبح حقيقة نهائية، وأن دمه لا يسقط من حساب الله، وأن الطاغية لا يستطيع أن يبلغ من أمره إلا حداً كتبه الله امتحاناً، ثم يقف عند المصادم.

والربوبية هنا تتضمن التربية أيضاً. فالله يربي المؤمنين بأحداث التاريخ، كما يربهم بالأوامر والنواهي. يعلمهم أن لا يخافوا القوة المجردة من الحق، وألا ينهبوا بالحضارة المجردة من الأخلاق، وألا يحسبوا التمكن المادي دليلاً على الرضا الإلهي. فربما أعطى الله قوماً حتى استدرجهم، وأمهلهم حتى ظهرت حجتهم على أنفسهم، ثم أخذهم أخذ عزيز مقتدر.

عاد: القوة حين تتحول إلى عقيدة

قال تعالى: ﴿بَعَادٍ لِّإِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾. عاد أمة نبي الله هود عليه السلام، وقد منحهم الله قوةً في الأجساد، وسعةً في العمران، ووسطاً في الأرض. كانوا من الشدة بحيث قالوا في غرورهم: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾، فاختصروا العالم كله في ميزان واحد: من الأقوى؟

وهذه هي اللحظة التي تخرف فيها القوة من نعمة إلى فتنة: حين لا يعود صاحبها يراها أمانة، بل برهاناً على تفوقه المطلق؛ وحين يظن أن قدرته على الفعل تمنحه حق الفعل؛ وحين تصبح القوة مصدر تعريفه لنفسه. لم يعد السؤال عند عاد: أحقُّ ما نفعل أم باطل؟ بل: من يستطيع منعنا؟ وبين السؤالين تتخدر الحضارة من مقام المسؤولية إلى هاوية الطغيان.

القوة في ذاتها ليست مذمومة، بل الأمة الضعيفة قد تُستباح حقوقها، ويُفتن أهلها عن دينهم، وتُنهب مقدراتها. والقرآن يدعو إلى إعداد القوة، لكنه لا يتركها بلا قيمة حاکمة. يريد قوةً تحرس الحق، لا قوةً تستبدل الحق بنفسها؛ قوةً ترفع المظلوم، لا قوةً تختبر بأسها في جسده؛ قوةً تعرف أنها من الله، وأنها محكومة بأمره، وأن شكرها يكون بكف الأذى ووسط العدل.

أما عاد فقد جعلوا القوة عقيدةً، وكأنهم استغنوا بها عن كل معيار. فلها قالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مَتَا قُوَّةً﴾، جاءهم الجواب الذي يرد القوة إلى مصدرها: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾. والمفارقة أن قوتهم نفسها كانت دليل افتقارهم لا دليل استقلالهم؛ لأنهم لم يصنعوا أجسادهم، ولم يخلقوا المواد التي بنوا بها، ولم يضعوا القوانين التي سخروها. كانوا يتباهون بهبةٍ منحها الله لهم، ثم يستخدمون الهبة في جحد واهبها.

وكم يتكرر هذا الوهم في حياة الإنسان! يفترخ بعقله وهو لم يخلقه، وبماله وقد خرج إلى الدنيا عاري اليدين، وبجماله وهو لا يستطيع أن يمنع عنه الذبول، وبصحته وهي قابلة للانكسار بخلل لا يرى. النعمة إذا انفصلت عن الشكر تحولت إلى ستار يحجب صاحبها عن حقيقتها؛ يرى أثر العطاء ولا يرى المعطي، ويتمتع بالقوة وينسى ضعفه الأصلي.

﴿إِرمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾: عظمة البناء لا تعني عظمة الإنسان

اختلف أهل التفسير في تحديد المراد بإرم وذات العمداد، فقيل: إرم اسم للقبيلة، وقيل: لجدهم، وقيل: لموطنهم، ووصفت بذات العمداد لما عُرِفوا به من قوة الأبنية أو طول الأجسام أو انخيام القائمة على الأعمدة. ولا يغير هذا الاختلاف الجزئي المعنى الذي تسوقه الآيات: لقد كانوا أصحاب قوة وعمران وتميز ظاهر لم يكن معهوداً في البلاد.

﴿الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾. إنه وصف يضعنا أمام ذروة الإعمار المادي؛ شيء مذهش، استثنائي، يفرض حضوره على الناظرين. لكن القرآن يذكر هذا التفوق لا ليمدح مآله، بل ليكشف عجزه عن إنقاذ أصحابه حين فسدوا. كأن الآية تقول: انظروا إلى أقصى ما يستطيع الإنسان أن يبلغه في ضخامة العمران، ثم انظروا كيف لا يزن كل ذلك شيئاً حين يصطدم بعدل الله.

ليست الأبنية دليلاً كافياً على رقي الحضارة، فالإنسان قد يرفع السقف ويخفض قيمة الإنسان، وقد يزين الشوارع ويملاً السجون، وقد يتقن هندسة الحجر ويفشل في هندسة العدل. الحضارة الحقيقية ليست مقدار ما ترفعه من أعمدة فحسب، بل مقدار ما تمنعه من انحناء ظهور الناس تحت الذل؛ ليست اتساع القصور، بل اتساع الكرامة؛ ليست أن تبني ما يدهش الأبصار، بل أن تبني إنساناً لا يعبد القوة ولا يستضعف العاجز.

وقد ظل الإنسان طويلاً مفتوناً بالمبنى، لأنه مرئياً ويمكن قياسه. أما الرحمة فلا أعمدة لها تُرى، والعدل لا يلمع كالحجارة المصقولة، والضمير لا يلتقط في الصور. لذلك تميل المجتمعات إلى عرض منجزاتها المادية وإخفاء تشققاتها الإنسانية. قد تتباهى بالجسور الشاهقة بينما لا يجد اليتيم من يجبر

قلبه، وتحدث عن الثروة بينما ينام المسكين جائعاً، وتعدد مظاهر تقدمها بينما يظل الإنسان فيها مجرد رقم قابل للسحق.

وسورة الفجر ستجمع بين المشهدين عمداً: ستذكر أولاً ﴿إِرمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾، ثم تقول بعد آيات: ﴿كَلَّا بَلْ لَا تَكْرُمُونَ الْيَتِيمَ﴾. وبين العماد واليتيم يظهر الميزان الحقيقي للحضارة. فما قيمة الأعمدة إذا كان تحت ظلالها قلب مكسور لا يلتفت إليه أحد؟ وما قيمة المدينة التي تحسن إضاءة الطرق ولا تعرف كيف تضيء مستقبل محروم؟ وما قيمة التقدم إذا كانت ثمرته تتكدس عند الأقوياء، بينما يُترك الضعفاء على هامش الصورة؟

إن العمران بلا عدل قد يتحول إلى ديكور للطغيان، والإنجاز بلا أخلاق قد يصبح أداة في يد المستبد. ولهذا لا يحاكم القرآن الحضارات على مقدار إنتاجها وحده، بل على الوجهة التي جعلت فيها إنتاجها، وعلى الإنسان الذي خدمته أو سحقته. وعاد لم تسقط لأنها بنت، بل لأنها طغت بما بنت، وحولت النعمة إلى استعلاء، وتوهمت أن العماد يحجبها عن العقوبة.

الصرح الذي أقيم خارج النفس

كان الخلل الأعظم عند عاد أنهم بنوا خارجهم أكثر مما بنوا داخلهم. ارتفعت الأعمدة، لكن لم يرتفع الشعور بالمسؤولية؛ اشتدت الأجساد، لكن

ضعفت البصائر، اتسعت القدرة، لكن ضاق الضمير. وهذه مفارقة تتكرر كثيراً: قد يتطور الخارج سريعاً، بينما يبقى الداخل بداً في أنانيته وخوفه وجشعه.

وكل تقدم لا يصحبه نمو أخلاقي يضاعف خطر الإنسان بدل أن يقلله؛ لأن الشر الذي كان محدود الأدوات يصبح قادراً على بلوغ مساحة أكبر. الجاهل الحاقد يؤدي من حوله، لكن العالم الحاقد قد يصنع من علمه منظومة واسعة للأذى. والمستبد المحدود يظلم قرية، أما المستبد الذي امتلك أدوات التنظيم والمراقبة والتأثير فقد يحول بلاداً كاملة إلى سجن شديد الإتقان.

لذلك كان بناء الإنسان أسبق في الرسالات من بناء الأدوات. الوحي يبدأ بإصلاح معنى الإله، والإنسان، والحياة، والمصير؛ لأنه يعلم أن اليد لا تؤمن حتى يستقيم القلب الذي يحركها. فإذا عرفت النفس أنها مخلوقة، ومسؤولة، ومبعوثة، وموقوفة بين يدي الله، اكتسبت القوة قيئاً داخلياً لا توفره القوانين وحدها.

القانون يردع الإنسان حين يراه الحارس، أما الإيمان فيردعه حين لا يراه إلا الله. والقانون قد يعجز أمام صاحب النفوذ، أما استحضار الآخرة فينزع من النفوذ قدرته على تضليل الضمير. ومن هنا كانت حضارة التوحيد، في أصل تصورها، بناءً للرصد داخل الإنسان قبل أن ينتظر مرصاد الدولة: يعلم

أن الله يراه، وأن الخفية ظاهرة في علمه، وأن النجاة ليست في الإفلات من المحكمة الأرضية.

ثمود: حين ينحت الإنسان في الصخر وهم الخلود

قال تعالى: ﴿وَتَمُودَ الَّذِي جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ﴾. انتقلت السورة من عاد ذات العماد إلى ثمود الذين شقوا الصخر ونحتوا الجبال. و«جابوا» تحمل معنى القطع والشق؛ فقد امتلكوا من القدرة والمهارة ما جعل الصخر الصلب يستجيب لأيديهم، فاتخذوا من الجبال بيوتاً آمناً.

إن الصورة مهيبة: إنسان صغير الجسد أمام جبل هائل، ثم يستطيع بعلمه وأدواته وإرادته أن يفتح في صلابته مساكن وقصوراً. وهذا وجه من تكريم الله للإنسان؛ أن سخر له ما في الأرض، ومنحه عقلاً يكتشف، ويداً تصنع، وخيالاً يحول المادة الخلام إلى عمران. غير أن ثمود، مثل عاد، انفصلت عندهم القدرة عن الهداية، فصار ما كان ينبغي أن يوقف الشكر سبباً في الاستغناء.

حين ينح الإنسان في تليين الصخر، قد يظن أن لا شيء يستطيع كسره. وحين يطوع الطبيعة، قد يتوهم أنه خرج من دائرة الحاجة إلى الله. لكن القرآن يكشف المفارقة: كانوا يشقون الجبل، ولم يستطيعوا أن يشقوا الغلاف

الصلب الذي أحاط بقلوبهم؛ نحتوا الصخر، ولم ينحت الإيمان في نفوسهم موضعاً؛ صنعوا بيوتاً آمنة في الظاهر، لكنهم لم يصنعوا مصيراً آمناً.

وما أكثر ما ينح الإنسان في معالجة الأشياء ويفشل في معالجة نفسه! يعرف تركيب المادة، لكنه لا يعرف كيف يفكك كبره؛ يقيس المسافات بين النجوم، لكنه يعجز عن قياس الهوة بين قوله وفعله؛ يخترع وسائل الاتصال، ثم يزداد عزلة؛ يطور أدوات الراحة، ولا يبلغ الطمأنينة. فالمعرفة المادية تجيب عن سؤال: كيف؟ لكنها لا تكفي وحدها للإجابة عن سؤال: لماذا؟ وإلى أين؟ ولأي غاية؟

ثمود بلغت مكاناً في الهندسة، لكنها فشلت في الامتحان الأخلاقي الذي تمثل في ناقة الله، الآية التي أمرت أن تحفظ حقها في الماء وألا تُمس بسوء. وكان المطلوب في ظاهره بسيطاً: أن تعترف الجماعة بأن القوة لا تمنحها حق احتكار الموارد، وأن في الأرض حقوقاً قررها الله لا يجوز للأقوياء التعدي عليها. لكن الطغيان لا يطيق الحدود، ولو كانت حدّاً واحداً؛ لأنه لا يرى نفسه قوياً إلا إذا استطاع أن يفعل ما يشاء.

عقروا الناقة، ولم يكن العقور اعتداءً على حيوان فحسب، بل كان إعلاناً بأن إرادتهم فوق الأمر الإلهي، وأنهم لا يقبلون وجود حق لا يتحكمون فيه. ولهذا قد تصبح الواقعة الصغيرة في ظاهرها كاشفةً عن مرض حضاري

عميق؛ فمن يعتدي على مخلوق ضعيف لأنه يملك القدرة، يحمل في فعله منطق الطغيان كله.

الحضارة التي غلبت الصخر وغلبتها شهواتها

تقدم ثمود نموذجاً مؤلماً لحضارة امتلكت مهارة السيطرة على البيئة، لكنها لم تمتلك مهارة السيطرة على النزوات. وهذا الانفصال هو أحد أخطر أمراض التقدم: أن يزداد الإنسان تمكناً من العالم، بينما يتناقص تمكنه من نفسه. يطلب من الطبيعة أن تنضبط لقوانينه، ويترك شهوته بلا قانون؛ يبني جدراناً تحميه من الأخطار الخارجية، ولا يبني في داخله جداراً يحميه من الجشع.

إن أخطر ما يهدد الإنسان ليس دائماً ما يعجز عن إخضاعه، بل ما ينجح في إخضاعه ثم يسيء استعماله. التقنية نفسها لا تحمل أخلاقاً، والقوة لا تحدد وجهتها؛ إنما القلب هو الذي يقرر: أوضع القدرة في خدمة الحياة أم في توسيع الموت؟ أيوظف العلم لتحرير البشر أم لمراقبتهم واستعبادهم؟ أُنُتخرج خيرات الأرض لسد الحاجات أم لتغذية نهم لا يشبع؟

وقد جاب قوم ثمود الصخر بالواد، لكن الوادي الذي امتلأ بأثر قوتهم صار بعد هلاكهم يحمل أثر غيابهم. بقي المكان وانطفأ ساكنوه، وبقيت بعض الشواهد تقول إن قدرة الإنسان على ترك أثر في الحجر لا تساوي قدرته على

ضمان البقاء. فالججر أطول عمراً من صاحبه، وما يشيده الإنسان قد يظل قائماً بعد أن يصير هو خبراً، وهذه وحدها كافية لكسر كثير من الغرور.

نحن نكتب أسماءنا على المباني لأننا نريد مقاومة النسيان، لكن الخلود لا ينتزع من الحجر. كم من اسم حُفر ثم حُي، وكم من صرح حمل اسم صاحبه ثم صار ملكاً لغيره! البقاء الحقيقي ليس أن يبقى النقش، بل أن يبقى الخير الذي قدمه الإنسان عند الله، وفي حياة الناس. قد يعيش مجهولاً في الأرض ويكون معروفاً في السماء، وقد يملأ اسمه الجدران ثم لا يكون له عند الله وزن.

فرعون ذو الأوتاد: السلطة التي أرادت تثبيت الأرض حول عرشها

ثم قال تعالى: ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ﴾. وإذا كانت عاد تمثل القوة العمرانية والجسدية، وثمود تمثل القدرة على تطويع الصخر، فإن فرعون يمثل الدولة المركزية المتجبرة؛ سلطة لها جنودها، وأدوات تثبيتها، ومظاهر سلطتها الراسخ. وقد قيل في «الأوتاد» إنها الجنود التي ثبتت ملكه، وقيل: الأبنية العظيمة، وقيل: الأوتاد التي كان يعذب بها الناس. وهذه المعاني كلها تلتقي في صورة سلطان يريد أن يثبت نفسه بالقوة، ويجعل الأرض مربوطاً إلى عرشه.

الوتد في الأصل يثبت الخيمة، لكن المفارقة أن أوتاد فرعون لم تثبت ملكه. يستطيع الطاغية أن يثبت خيام الخوف في حياة الناس مدة، وأن يغرس أوتاد السجن في أجسادهم وذاكرتهم، لكنه لا يستطيع أن يثبت الزمن. فالتاريخ لا يقبل أن يُسَمَّرَ إلى عرش أحد، والأجيال لا تبقى نسخة مطابقة للجيل المقهور، والحق الذي يُدفع إلى الأعماق قد يعود في لحظة لا يتوقعها المستبد.

فرعون لم يكن فرداً غاضباً يظلم من حوله، بل كان نظاماً كاملاً للطغيان. قسّم الناس شيعاً، واستضعف طائفة منهم، وذبح الأبناء واستحيا النساء، وصنع من الخوف سياسة، ومن التمييز الاجتماعي وسيلة لبقاء الحكم. وهذه هي الفرعونية حين تنضج: لا تكتفي بأن يكون الحاكم ظالماً، بل تعيد تشكيل المجتمع كله كي يخدم الظلم؛ تجعل بعض الناس جلاوزة، وبعضهم مخبرين، وبعضهم منتفعين، وبعضهم صامتين، ثم تحاصر الضحية حتى تشعر أن الكون كله قد تخلى عنها.

ومن أخطر أساليب فرعون أنه لم يقدم نفسه للناس بوصفه طاغيةً، بل بوصفه حامياً لمصلحتهم. قال لهم: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾. وهكذا لا يكتفي الاستبداد بمصادرة القرار، بل يصادر تعريف الرشاد نفسه؛ يجعل طاعة الحاكم عقلاً، ومخالفته فتنه، ويقدم الخوف

في صورة حرص، والقمع في صورة حماية، والاستعباد في لغة النظام والاستقرار.

إن الطغيان لا يعيش بالقوة العارية وحدها؛ يحتاج إلى قصة يرويها عن نفسه. يصنع خطاباً أخلاقياً يبرر به القسوة، ويعيد تسمية الجرائم، ويطلب من الضحية أن تشكره لأنه لم يسحقها أكثر. وما لم يحتفظ المجتمع بميزانه المستقل المستمد من الحق، استطاعت السلطة أن تبدل أسماء الأشياء في وعيه؛ فيغدو الذل حكمة، والصمت سلامة، والظلم ضرورة، والمطالبة بالعدل تهديداً.

ولهذا أرسل الله إلى فرعون موسى عليه السلام، رجلاً لا يملك جيوشاً ولا أوتاداً، بل يحمل كلمة من الله. وفي ظاهر ميزان الأرض كانت المواجهة غير متكافئة: قصر في مواجهة عصا، وجند في مواجهة مهاجر عاد خائفاً، وسلطان إعلامي واسع في مواجهة لسان سأل صاحبه ربه أن يحل عقده. لكن المعركة الحقيقية لم تكن بين عديدين من البشر، بل بين ادعاء الربوبية وحق الربوبية؛ بين من قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾، وبين من جاء برسالة رب العالمين.

وكلما اتسع طغيان فرعون، ضاقت الخيارات أمامه حتى لم يعد يحتمل وجود صوت واحد يقول: لا. فالطاغية في الظاهر حري فعل ما يشاء، لكنه في باطنه أسير صورته؛ يخاف من طفل، ويخاف من كلمة، ويخاف من رؤيا،

ويخاف من اجتماع الناس على حقيقة. إن السلطة المطلقة لا تمنح صاحبها أمناً مطلقاً، بل قد تجعله أكثر الناس رعباً، لأنه يعلم أن ما بناه بالقهر لا يحميه الحب، وأن الوجوه المنحنية أمامه قد لا تحمل له في داخلها إلا السخط.

ثلاثة نماذج ووصف واحد

بعد أن ذكرت السورة عاداً وثمود وفرعون، جمعهم في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ﴾. اختلفت الأزمنة والأمكنة والأدوات، لكن المرض واحد: الطغيان. فالقرآن لا يضيعنا في التفاصيل حتى ننسى القانون الجامع؛ إنه يرد الأشكال الكثيرة إلى الجذر النفسي والأخلاقي الذي أنبتنا.

والطغيان هو تجاوز الحد. الماء إذا تجاوز حده أغرق، والسلطة إذا تجاوزت حدها استعبدت، والمال إذا خرج من مقام الوسيلة إلى مقام الغاية أفسد، والأنا إذا تجاوزت حجمها الحقيقي حجت صاحبها عن الله والناس. فليس الطغيان مقصوراً على الملوك؛ لهم منه الصورة الأوسع والأشد، لكن بذوره قد تنبت في أي إنسان لا يعترف بحدود نفسه وحقوق غيره.

قد يطغى الأب في أسرته، والرئيس في عمله، والعالم بعلبه، والغني بماله، والأكثرية بعددها، والمظلوم نفسه إذا امتلك القدرة ولم يطهر ألمه من شهوة

الانتقام. فالاضطهاد لا يمنح صاحبه عصمة تلقائية؛ ربما يكره الظلم لأنه وقع عليه، لا لأنه ظلم، فإذا انتقلت القوة إليه أعاد المشهد وغير الأسماء.

وهنا تظهر أهمية العبودية في مقاومة الطغيان؛ فهي تضع حداً ثابتاً أمام النفس: أنت عبد، ولست إلهاً؛ مسؤول، ولست مطلق اليد؛ مستخلف، ولست مالِكاً أصيلاً؛ وستقف للحساب، ولن تبقى في موضعك أبداً. وكلما حضر هذا الوعي انكسر في الإنسان ادعاء الاستغناء.

أما حين تُنزع الآخرة من وعي القوة، فلا يبقى أمامها إلا ما تستطيع فعله الآن. وإذا ضمن صاحبها غياب المساءلة الأرضية، أطلق شهوته بلا سقف. لذلك كان الإيمان بالحساب ضرورة أخلاقية قبل أن يكون خبراً عن المستقبل؛ إنه يبني في أعماق الإنسان محكمة لا يستطيع تعطيلها، ويجعل اليد ترتجف أمام الحق ولو كانت القوانين في صفها.

﴿فِي الْبِلَادِ﴾: حين يفسد الطغيان جغرافية الحياة

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ﴾. لم يقل: طغوا في أنفسهم فقط؛ لأن الطغيان حين يتمكن لا يبقى شأنًا شخصيًا، بل يعيد تشكيل المكان كله. يدخل إلى الإدارة والاقتصاد والتعليم والثقافة والعلاقات، حتى تصبح البلاد مصممة لحماية القلة وإرهاق الكثرة.

الظالم لا يحتل جسد ضحيته وحده، بل يحاول احتلال الزمن والمكان من حولها. يجعل الطريق إلى الحق طويلاً، والطريق إلى رضاه قصيراً؛ يجعل الكفاءة مرهونةً بالولاء، والرزق متصلاً بالصمت، والنجاة محتاجةً إلى التنازل. وهكذا لا يعود الفساد سلسلة أخطاء منفردة، بل يصير مناخاً عاماً يتنفسه الناس حتى يألفوه.

والبلاد في أصل معناها موطن للأمان والعمران والتعارف، فإذا دخلها الطغيان تحولت إلى مساحة خوف. ينظر الإنسان خلفه قبل أن يتكلم، ويخشى الصادق من صدقه، وينجو الكاذب بكذبه، ويهاجر أصحاب الكفاءة، ويرتفع المتملقون. وحين تنقلب موازين المكافأة والعقوبة، يبدأ المجتمع نفسه في إنتاج الفساد؛ لأن الناس يتعلمون أن الخير مكلف، وأن الانتهازية أقصر الطرق إلى النجاح.

لهذا لا يكون أثر الطغيان في عدد المعتقلين والقتلى وحده، على فداحة ذلك، بل في التشوه البطيء الذي يصيب أخلاق المجتمع. يعلم الناس النفاق، ويكسر الثقة، ويجعل الخوف ينتقل من السجون إلى البيوت، ويزرع في الآباء قلقاً يورثونه أبناءهم. وربما يسقط الطاغية ويبقى جزء من نظامه النفسي حياً في ضحاياها؛ فيحتاج المجتمع بعد التحرر من سلطانه إلى زمن ليتحرر من الخوف الذي بناه داخله.

﴿فَأَكْثُرُوا فِيهَا الْفَسَادَ﴾: حين يصبح الشر منظومة

الطغيان تجاوز للحد، والفساد هو الأثر الذي يتركه هذا التجاوز في الحياة. ولذلك جاء الترتيب دقيقاً: ﴿طَغَوْا فِي الْبِلَادِ﴾ ﴿فَأَكْثُرُوا فِيهَا الْفَسَادَ﴾. يبدأ الأمر بإرادة متضخمة لا تقبل قيداً، ثم تتكاثر حولها دوائر الفساد.

قال تعالى: ﴿فَأَكْثُرُوا﴾، فالمشكلة ليست ذنباً عابراً أو خطأ محدوداً، بل إكثار من الفساد حتى غلب على المشهد. حين يكون الفساد فردياً يمكن محاصرته، أما حين ترعاه القوة ويتحول إلى قاعدة، فإن المصلح يبدو غريباً، ويصبح المستقيم كأنه الخارج على النظام.

والفساد في الرؤية القرآنية أوسع من الفساد المالي، وإن كان نهب المال العام من صوره الكبرى. هو إفساد الإنسان، وتبديل القيم، وإهلاك الحرث والنسل، ونشر الخوف، وإضعاف الثقة، وتحويل الحقوق إلى منح يتفضل بها المتسلط. وقد تكون أخطر صوره هي التي لا تترك جرحاً ظاهراً، بل تعيد تشكيل الوعي حتى يحب الإنسان قيده أو يعجز عن تخيل الحياة خارجه.

والطغيان يكثر الفساد لأنه يحتاج إليه ليستم. يحتاج إلى قضاء لا يستقل، وإعلام لا يقول الحقيقة، وعلماء يزنون، وأثرياء ترتبط مصالحهم ببقائه، وأجهزة تجعل الولاء لشخص مقدماً على الولاء للحق. وهكذا يبني شبكة يتوزع

فيها الإثم؛ فيظن كل فرد أنه مجرد جزء صغير، بينما تتكون الجريمة الكبرى من تنازلات صغيرة متراكمة.

ليس كل من يخدم منظومة الفساد طاغيةً كبيراً، لكن الطاغية الكبير لا يستطيع أن يعمل وحده. يحتاج إلى من يكتب له الخطاب، ومن يفتح له السجن، ومن يزور له الحقيقة، ومن يقنع الضحايا بأن ألمهم ضروري. ولذلك فإن مقاومة الطغيان تبدأ أيضاً من رفض الإنسان أن يكون ترساً صغيراً في آلة الشر، ولو بدا دوره محدوداً.

ال عمران الذي يحمل أسباب خرابه

لم يأت الفساد على حضارات عاجزة، بل على عاد ذات العماد، وثمود الذين جابوا الصخر، وفرعون ذي الأوتاد. وهذا يعني أن التقدم المادي قد يجتمع مع الانهيار الأخلاقي، وأن الحضارة قد تبلغ ذروة قدرتها في اللحظة التي تبدأ فيها أسباب سقوطها بالتكاثر.

حين يتسع الفساد تضعف الثقة، وحين تضعف الثقة يتآكل التعاون، وحين يصبح الولاء مقدماً على الكفاءة تتراجع المؤسسات، وحين يحتكر القليل الثروة والقرار تتسع الهوة حتى يحمل البناء في داخله تصدعاته. ربما يبدو من الخارج قوياً، لكن قوته تتحول إلى قشرة تخفي هشاشة متصاعدة.

الطغيان قصير النظر؛ يربح الصمت اليوم ويخسر الإنسان غداً. يقتل المبادرة لأنه يخاف الاستقلال، ثم يشكو من ضعف المجتمع. يطرد الكفاءات لأنه يشك في كل قوي، ثم يملأ المواقع بمن لا يستطيعون إلا الطاعة. يبني حول نفسه دوائر من المصنفين، فيُحرم من الحقيقة التي كان يمكن أن تتقذه من أخطائه. وبذلك لا يكون سقوطه قادماً من خصومه وحدهم، بل من العمى الذي صنعه حول نفسه.

وكل نظام يطرد الحقيقة من مجلسه، يستدعي الكارثة إلى مستقبله. فالحقائق لا تزول لأن الحاكم لا يريد سماعها، وإنما تتراكم خارج التقارير المزيفة حتى تنفجر. والمرأة التي تكسر لا تجعل الوجه أجمل؛ إنها فقط تمنع صاحبه من رؤية ما صار إليه.

﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾: حين ينزل الجزاء على قدر الطغيان

بعد الطغيان والإثكار من الفساد جاءت الفاء الدالة على التعقيب والنتيجة: ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾. لم يكن العذاب حادثة منفصلة عن أعمالهم، بل ثمرة مرة لما زرعوا. إنهم الذين صنعوا شروط الهلاك حين أغلقوا أبواب المراجعة، وردوا الرسل، واستضعفوا الناس، وحولوا النعم إلى وسائل للفساد.

واختيار لفظ ﴿فَصَبَّ﴾ يرسم مشهداً كثيفاً متتابعاً، كأن العذاب مادة تنحدر عليهم من فوق فلا يملكون لها دفعاً ولا مهرباً. الذين اعتلوا على الناس بالطغيان جاءهم الجزاء من حيث لا يملكون السيطرة، فغطاهم بعد أن ظنوا أنهم يغطون البلاد بسلطانهم.

أما ﴿سَوَّطَ عَذَابٍ﴾ فصورة تجمع الإيجاز والرهبة. والسوط أداة إيلاام معروفة، لكن إضافته إلى العذاب توحى بأن ما أصابهم كان ضربةً من عذاب الله، وأن وراءها من تمام القدرة ما لا يحيط به تصور البشر. وقيل إن التعبير يشير إلى نصيب شديد من العذاب، كما أن السوط يلامس الجسد فيوقع الألم. والمهم أن القرآن يجعل من الأداة التي ارتبطت في الأذهان ببطش المتسلطين صورةً للعقوبة التي عادت إليهم؛ كأن السياط التي امتدت إلى ظهور الضعفاء عادت في ميزان العدالة على أصحابها، لا ظلماً ولا انتقاماً بشرياً أعمى، بل جزاءً من رب لا يظلم أحداً.

وعاد أهلكت برمح صرصر عاتية؛ القوة التي لم يكونوا يرونها أمسكت أجسادهم التي تباهوا بقوتها. وثمود أخذتهم الصيحة والرجفة؛ فلم تغن عنهم البيوت المنحوتة في الجبال. وفرعون الذي ملك الجند والأوتاد أغرقه الماء الذي عجزت أوتاده عن تثبيته أمامه. وفي كل مصير مفارقة تكشف محدودية

القوة البشرية: قد يأتي الهلاك من عنصر مألوف ظن الإنسان أنه تحت سيطرته؛ ريح أو صوت أو ماء.

إن الجندي الذي لا يرى قد يكون أشد من الجيوش، والسبب الصغير في أعين الناس قد يحمل أمراً كبيراً من الله. وهذا لا يعني أن كل كارثة طبيعية عقوبة لأصحابها؛ فالحكم على الوقائع المعينة يحتاج إلى وحي، ولا يجوز للإنسان أن يتألى على الله أو يفسر آلام الناس بغير علم. لكن أخبار القرآن المقطوع بها تعلننا القاعدة العامة: أن الله قادر على أخذ الظالمين، وأن الأسباب التي يظنونها مأمونة قد تصبح بإذنه باب سقوطهم.

الإمهال ليس إهمالاً

قد يسأل القلب وهو يرى الظلم: لماذا يتأخر العذاب؟ لماذا يبقى الطاغية سنواتٍ يملأ الأرض فساداً؟ والجواب أن تأخر العقوبة في حسابنا لا يعني غيابها في تقدير الله. نحن نريد العدالة في اللحظة التي يحترق فيها ألمنا، أما الله فيحكم بعلم كامل لا تحده عجلتنا.

قد يكون في الإمهال فرصة للتوبة، أو إقامة للحجة، أو كشف لما تخفيه النفوس، أو تربية للمؤمنين، أو استدراجاً للظالم حتى يأخذه الله على حال لا

يفلت منها. وما نراه نحن تأخراً قد يكون جزءاً من تمام العدل؛ لأن الله لا يعاقب بالظن، ولا يأخذ بلا بيان، ولا تضع عنده ذرة من خير أو شر.

لكن أخطر ما يفعله الإمهال بالطاغية أنه يخدعه عن نفسه. يظن أن عدم نزول العقوبة تصديق لطريقه، وأن نجاته المتكررة علامة رضا، وأن ازدياد سلطانه برهان على أنه لا يُغلب. وكل يوم يمر دون حساب يزيده جرأة، حتى يتجاوز آخر الحدود وهو يتوهم أن الطريق مفتوح.

وهنا يظهر الفرق بين المؤمن والطاغية في قراءة الزمن: المؤمن يرى الإمهال فرصة للاستغفار، والطاغية يراه ترخيصاً بالمزيد. المؤمن كلما امتد به العمر خاف أن يُسأل عما مضى، والطاغية كلما امتد به الملك ظن أنه صار جزءاً من طبيعة الأشياء. حتى إذا جاء الأجل، جاءه من الجهة التي لم يحتسبها.

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبَاَرٌصَادٌ﴾: الحقيقة التي تعيد للعالم توازنه

تصل الآيات إلى خاتمتها المنزلّة: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبَاَرٌصَادٌ﴾. جملة قصيرة، لكنها تحمل ثقل العدالة كلها. إنَّ للتوكيد، واللام للتوكيد، والمرصاد موضع الرصد والمراقبة التي لا يفلت منها مارّ. ليست أفعال الناس سائبة، ولا دموع المظلومين تبخر في هواء لا يسمعها، ولا الطغاة يتحركون في أرض بلا مالك. الله بالمرصاد.

والمرصاد ليس انفعالاً مفاجئاً بعد غفلة؛ تعالى الله عن ذلك. فالله يعلم قبل الفعل وبعده، والسر عنده علانية، وما تخفي الصدور مكشوف. وإنما يقرب اللفظ إلى وعينا معنى الإحاطة والانتظار المحتوم للجزاء: كل طريق يسلكه الظالم يمر في النهاية من موضع الحساب، وكل مهرب يتخيله مغلق بعلم الله وقدرته.

هذه الآية لا تخاطب الطاغية وحده، بل تخاطب المظلوم كذلك. تقول له: قد تكون عاجزاً عن إثبات حقك أمام محكمة الأرض، لكن الأدلة لم تضع، وقد يشوهون قصتك، لكن الحقيقة محفوظة؛ وقد يكتب المنتصر روايته، لكن فوق المؤرخين رب لا يضلله قلم. ليس معنى ذلك أن تنازل عن طلب العدالة، بل أن لا تجعل عجزك المؤقت سبباً لانهيارك الداخلي. ثمّة عدل لا يتوقف على اكتمال وثائق البشر.

وهي تخاطب كل واحد منا أيضاً، حتى لا نحصر معناها في الطغاة البكّار. الله بالمرصاد للكلمة التي نقولها ثم ننساها وقد بقي جرحها في قلب آخر، وللحق الذي جبنه لأن صاحبه ضعيف، وللهيراث الذي أكل بعيداً عن المحاكم، ولليتيم الذي لم يجد لساناً يدافع به عن ماله، وللعامل الذي أخذ جهده، وللمسكين الذي مُنِعَ حقه. والآيات التالية ستنتقل مباشرة إلى هذه

التفاصيل؛ لأن المرصاد الإلهي لا يراقب قصور فرعون وحدها، بل موائدنا وبيوتنا ومعاملاتنا أيضاً.

إن من السهل أن نهتف ضد ظلم بعيد، ومن الصعب أن نكتشف ظلمنا القريب. قد يتألم الإنسان لمظلوم في بلد آخر، ثم يقسو على من يعيش معه؛ وقد يكتب عن العدالة، ثم يحرم امرأة من ميراثها؛ وقد يلعن الاستبداد السياسي، ويمارس استبداداً عائلياً لا يقل قسوة في نفس شخصيته. والمرصاد يعيد توحيد الأخلاق: لا تستطيع أن تكون مع العدل هناك وضده هنا، ولا أن تجعل المبادئ سلاحاً على خصومك ثم تعفي منها نفسك.

المرصاد داخل الضمير

ومن رحمة الله بالإنسان أنه لم يؤجل كل إشارات الحساب إلى الآخرة، بل أودع في الفطرة مرصداً داخلياً هو الضمير. قد يسكت الإنسان صوته، وقد يدفنه تحت التبريرات، لكنه يشعر في لحظات الصدق أن شيئاً فيه يراقبه. وربما نامت المدن كلها، وبقي هو مستيقظاً أمام كلمة قالها أو حق أخذه.

غير أن الضمير وحده قد يُفسد إذا تكرر عليه التبرير، ولذلك يحتاج إلى الوحي ليصح ميزانه. فقد يعتاد المجتمع ظلماً حتى لا يعود يشعر به، وقد يُسمى الاستعلاء هيبة، والبخل حرصاً، وسلب الحقوق عرفاً. هنا يأتي القرآن

ليوقظ الحس الذي خدرته العادة، ويعلن أن شيوع الظلم لا يحوله إلى عدل، وأن قبول الناس به لا يخرجهم من علم الله.

ومن عاش مستحضراً المرصاد لم يحتج دائماً إلى رقابة خارجية. يؤدي الأمانة في الغياب، ويكف لسانه حين يقدر على التشهير، ويرد المال حين يمكنه إنكار صاحبه، ويعتذر حين يكون الاعتذار ثقیلاً على كبريائه. ليست التقوى خوفاً سلبياً يجعل الإنسان مرتبكاً، بل وعيٌ يمنحه استقامةً داخلية: يعرف أن حريته ليست فوضى، وأن الخلوة ليست غياباً عن الله.

وفي الوقت نفسه، يمنح المرصاد النفس أماناً عميقاً؛ لأن العالم ليس متروكاً للصدفة الأخلاقية. قد تختل الموازين زمنياً، لكنها ليست الموازين النهائية. وقد يعلو الباطل، لكن علوه يجري تحت عين الله. والذين يبدوون خارج المسألة ليسوا خارج المرصاد.

بين الفجر والمرصاد

تبدأ السورة بالفجر، وتصل هنا إلى المرصاد. وبينهما علاقة خفية جميلة: الفجر وعد المظلوم بأن الليل يرحل، والمرصاد ضمان أن الظلم لا يرحل بلا حساب. فليست المسألة مجرد تعاقب طبيعي للأحوال، بل عدالة تدبر هذا

التعاقب. يسري الليل لأن الله قدّر له أن يسري، ويسقط الطغيان لأن الله لم يخلق الكون ليكون ملكاً أبدياً للطغاة.

عاد كانت ليلاً وسرت، وثمود كانت ليلاً وسرت، وفرعون كان ليلاً وسرى. وما بقي هو كلمة الله التي تروي مصائرهم، لا كما أرادوا أن تُروى، بل كما كانوا على الحقيقة. كانوا يكتبون أخبار النصر على جدرانهم، فجاء القرآن ليكتب خبر الهزيمة في ضمير الزمن.

ولعل أعظم ما تكشفه هذه الآيات أن سقوط الحضارات لا يبدأ حين تنهدم مبانيها، بل حين تنهدم موازينها. تسقط أولاً من عين الحق، ثم يتأخر سقوطها المادي إلى الأجل المقدر. وحين يكثر الفساد، ويصبح الضعيف بلا حرمة، والقوة بلا حد، والمال بلا حق، تكون الحضارة قد دخلت ليلها، وإن ظلت أنوار مدنها مشتعلة.

غير أن القرآن، بعد أن عرض طغيان الأمم، لن يترك القارئ يتفرج على التاريخ من مقعد البراءة. سينقله في الآيات التالية من قصور عاد وثمود وفرعون إلى قلبه هو، إلى طريقته في فهم الغنى والفقر، والإكرام والإهانة. فكأن السورة تقول: قبل أن تدين الطغيان الكبير، فتش عن الفكرة الصغيرة التي ينبت منها؛ عن اعتقاد الإنسان أن ما يملكه دليل على قيمته، وأن من قل رزقه قل قدره.

وهنا تبدأ المحاكمة الأدق: محاكمة الموازين المختلة في النفس، قبل أن تتحول إلى أعمدة وأوتاد وسياط. ففرعون لم يبدأ يوم قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾، بل يوم تضخمت ذاته حتى لم تعد ترى فوقها حقاً ولا إلى جانبها إنساناً. وعاد لم تبدأ حين قالت: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾، بل يوم فهمت النعمة بوصفها استحقاقاً لا ابتلاءً. وثمود لم تبدأ حين عقرت الناقة، بل حين ظنت أن ما تستطيع فعله يحق لها أن تفعله.

لهذا سيعود القرآن بنا إلى الجذر الأول، إلى الإنسان حين يبتليه ربه فيكرمه وينعمه، فيقول: ﴿رَبِّيَ أَكْرَمَنِ﴾، وحين يقدر عليه رزقه، فيقول: ﴿رَبِّيَ أَهَانَنِ﴾. وهناك سيهوي على هذا الميزان كله بكلمة واحدة فاصلة: ﴿كَلَّا﴾.

الفصل الرابع

﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ﴾: حين يخطئ الإنسان في قراءة أقدار

الله

﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١﴾
وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴿٢﴾ كَلَّا﴾

بعد أن أخذتنا السورة إلى عاد وثمود وفرعون، وأوقفنا أمام أعمدة القوة وصخور العمران وأوتاد السلطان، تعود فجأة إلى الإنسان المفرد؛ لا الإنسان وهو بيني حضارة، بل وهو يستقبل زيادةً في رزقه أو نقصاً منه. وقد يبدو الانتقال بعيداً للوهلة الأولى: ما علاقة طغيان الأمم بطريقة فرد في تفسير غناه وفقره؟ لكن هذا الانتقال هو الذي يكشف الجذر الخفي للقصة كلها؛ فالطغيان الكبير لا يولد مكتملاً في القصور، وإنما يبدأ فكرةً صغيرة في النفس: أن ما في اليد دليلٌ على ما للإنسان عند الله، وأن كثرة العطاء شهادة تفوق، وأن من ضاق رزقه فقد هان قدره.

من هذه الفكرة يبدأ اختلال الميزان. فإذا ظن الغني أن ثراه شهادة إلهية بفضل، لم يعد يرى في المال أمانةً، بل امتيازاً يثبت علوه. وإذا ظن الفقير أن ضيق رزقه إهانة، فقد يضعف شعوره بالكرامة، ويقبل أن يُقاس بما يملك.

وهكذا يتفق الغني والفقير، من جهتين متقابلتين، على ميزان فاسد واحد: المال هو الذي يحدد قيمة الإنسان. ثم تنشأ من هذا الميزان مجتمعات تعظم صاحب الثروة وإن خلا من المروءة، وتحتقر المحروم وإن امتلأ قلبه تقوى وحكمة.

لهذا جاءت هذه الآيات بعد قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾؛ لأن المرصاد لا يراقب فقط الطغاة حين يفسدون في البلاد، بل يراقب أيضاً المعنى الأول الذي تتكون منه علاقتنا بالنعمة. هناك في أعماق الإنسان، قبل أن يظهر الظلم في الاقتصاد والسياسة والمجتمع، يقع امتحان التأويل: كيف تقرأ ما أعطاك الله؟ وكيف تفهم ما منعه عنك؟ وهل ترى النعمة جسراً إلى الشكر، أم مرآة تتأمل فيها عظمة نفسك؟

الإنسان حين يجعل نفسه مركز التفسير

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ﴾. واللفظ هنا يتناول جنس الإنسان من حيث ما يغلب عليه من ضعف النظر وعجلة الحكم، إلا من رباه الإيمان وصحح الوحي موازينه. فالإنسان يميل بطبعه، حين تغيب عنه الهداية، إلى أن يفسر الأشياء من موقع ذاته: ما وافق رغبته سماه خيراً، وما خالفها سماه شراً؛ ما وسع عليه رآه حباً، وما ضيق عليه رآه إهانة.

إنه يريد أن يجعل الكون كله يشرح له مكانته. فإذا فُتِحَ له باب قال: أنا مستحق، وإذا أُغلق دونه باب قال: أنا مهان. ينسى أن الباب المفتوح قد يكون امتحاناً أشد من المغلق، وأن الحرمان قد يحجيه مما لا يعلم، وأن الله لا تُقاس محبته لعبده بحجم ما يضعه في يده، بل بما يعلمه من مصلحته ومآله.

وتظهر مشكلة الإنسان هنا في استعجاله تحويل الحدث إلى حكم نهائي. يقع له جزء صغير من القدر، فيبني عليه تصوراً كاملاً عن الله ونفسه والحياة. تأتيه خسارة فيظن أنه صار خاسراً في الوجود كله، ويتأخر عنه مطلوب فيتوهم أن السماء ردت، ويصيبه المرض فيقرأه كأنه خروج من دائرة العناية. مع أن الحدث الواحد لا يكشف وحده معنى القصة، والصفحة المؤلمة ليست الكتاب كله.

لقد كان الجب في قصة يوسف عليه السلام موضع ظلمة، لكنه لم يكن إهانة نهائية، وكان السجن تضيقاً، لكنه لم يكن خذلاناً. ولو قرأ يوسف قدره من مشهده العاجل وحده لبدت حياته سلسلة من الإبعاد: أبعد عن أبيه، ثم عن حريته، ثم تأخر خروجه من السجن. غير أن العناية كانت تنسج من هذه المواضع نفسها طريقاً إلى التمكن. لم يكن الله غائباً حين غابت الحكمة عن العيون.

وكان مرض أيوب عليه السلام ابتلاءً شديداً، لكنه لم يكن حكماً بانخفاض مقامه؛ بل صار صبره منارةً للإنسانية. وكان فقر كثير من الصالحين ضيقاً في الرزق لا ضيقاً في الكرامة، كما كان اتساع الملك على فرعون زيادةً في الحجة لا زيادةً في المنزلة. فلو كان المال معيار الرضا المطلق، لكان الطغاة أكرم الخلق، وكان الأنبياء حين ضيق عليهم أقل الناس قدراً؛ وهذا باطل تهدمه قصص الوحي كلها.

﴿إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ﴾: العطاء امتحان قبل أن يكون امتيازاً

قال تعالى: ﴿إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ﴾. الكلمة المفتاح هنا هي: ﴿ابْتَلَاهُ﴾. فالنعمة ابتلاء، كما أن الضيق ابتلاء. والابتلاء ليس مرادفاً للألم وحده، بل هو الاختبار الذي يكشف حقيقة موقف الإنسان، ويظهر ما يصنعه بما أُعطي أو بما مُنع.

وقد قدّم القرآن لفظ الابتلاء قبل الإكرام والتنعيم حتى لا يفتننا بظاهر النعمة عن حقيقتها. نعم، في السعة إكرام من جهة ما فيها من تيسير ولذة، لكنها ليست حكماً نهائياً بكرامة صاحبها عند الله. إنها عطاء يحمل سؤالاً، ونعمة تحمل تكليفاً، ومال يتضمن حقوقاً. وكلما كبرت النعمة، كبر معها السؤال: من أين اكتسبت؟ وفيم أنفقت؟ ومن شاركك حقاً فيها فلم تؤده إليه؟

لكن الإنسان يرى الهدية ويغفل عن الامتحان الكامن داخلها. يفرح بما دخل يده، ولا يسأل عما دخل في ذمته. يعد ما أضيف إلى حسابه، ولا يعد ما أضيف إلى مسؤوليته. فيتحوّل المال في نظره من أمانة مؤقتة إلى ملكية مطلقة، ومن وسيلة لإقامة الحياة إلى مادة لصناعة الذات المتعالية.

إن النعمة بطبيعتها توسع قدرة الإنسان على الفعل، وكل قدرة موسعة هي امتحان موسع. الفقير قد يريد أن يظلم لكنه يعجز، أما الغني فقد يستطيع؛ والضعيف قد يحمل في نفسه كبراً لا يجد وسيلة لإظهاره، أما صاحب النفوذ فتأتيه كل يوم فرص تمتحن رحمته وعدله. لذلك لا تكون السلامة في عدم امتلاك القوة وحده، بل في امتلاك قلب يعرف كيف يضعها تحت أمر الله. والامتحان في النعمة قد يكون أخفى من الامتحان في الشدة. الحنة تُشعر الإنسان بضعفه فتدفعه إلى الدعاء، أما النعمة فقد تغلف حاجته حتى يظن أنه مستغن. الشدة تقتحم غفلته، أما الرخاء فيمنحه قدرةً على تأجيل الأسئلة الكبرى. وحين تتوافر له الأسباب قد ينسب النجاح إلى ذكائه وحده، وينسى كم من باب فُتح له دون استحقاق، وكم من خطر صُرف عنه دون علم.

ولهذا كان الشكر معرفةً قبل أن يكون كلمة. أن تشكر الله لا يعني فقط أن تقول: الحمد لله، بل أن ترى النعمة منه، وأن تعرف وظيفتها، وأن تستعملها في

مرضاته. قد يحمد الإنسان بلسانه ثم يستخدم النعمة في معصية المنعم؛ يذكر الله على المال ثم يمنع حق المحتاج، ويشكره على المنصب ثم يظلم من تحته، ويشكره على العلم ثم يتكبر به على الجاهل. وهذا حمد لم يبلغ بعد حقيقة الشكر.

الشكر أن تحول النعمة من متاع شخصي إلى باب خير، وأن يشعر من حولك بأثر ما أعطاك الله، لا أن يتحملوا كلفة غرورك به. فإذا رزقك الله علماً، كان شكره أن تهدي به لا أن تزدرى من لا يعلم؛ وإذا منحك بلاغةً، كان شكرها أن تنصر الحق لا أن تتلاعب بعقول الناس؛ وإذا منحك سلطة، كان شكرها أن تعمي الضعيف لا أن تختبر قدرته على الاحتمال.

﴿فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ﴾: إكرام النعمة وإكرام المنزلة

في قوله تعالى: ﴿فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ﴾ إثبات لإكرام واقع في الدنيا، لكن الخطأ في قول الإنسان: ﴿رَبِّي أَكْرَمَنِي﴾ أنه فهم الإكرام الدنيوي المحدود بوصفه حكماً مطلقاً بمنزلة عند الله. خلط بين إكرام العطاء وكرامة التقوى، وبين تيسير الحال ورضا المآل.

قد يكرم الله الإنسان بالصحة، أو المال، أو الجاه، أو الأولاد، وهذه نعم عظيمة تستحق الحمد، لكنها لا تقول وحدها إن صاحبها من أكرم الناس عند

الله. الميزان القرآني واضح: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾. فالكرامة النهائية

ليست فيما يحيط بالإنسان، بل فيما يقوم في قلبه ويظهر في عمله.

إن أكبر خدعة يقع فيها المترف أن يظن أن النعمة تصديق لكل ما يفعله. ما دام رزقه يتسع وصحته قائمة وأبوابه تُفتح، فقد يتوهم أن طريقه صحيح. لكن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ويجري أسبابها وفق سنن يتعامل معها المؤمن والكافر. وقد يكون الاتساع استدراجاً إذا أورث الغفلة، كما قد يكون فضلاً إذا أورث الشكر.

ولذلك لا تُعرف حقيقة النعمة من صورتها الأولى، بل من أثرها الأخير. المال الذي قريبك من الله وأغاث بك ملهوفاً نعمة في حقك، والمال الذي ملأ قلبك كبراً وشغلك عن المصير قد انقلب فتنة، وإن ظل الناس يسمونه نجاحاً. والمنصب الذي أقمت به عدلاً باب من الخير، والمنصب الذي جعلك تنسى ضعفك الأول حفرة مرتفعة الحواف.

العبرة ليست بمقدار ما تملك، بل بمقدار ما بقي منك حراً أمام ما تملك. هل المال في يدك أم أنت في يده؟ هل تستطيع أن تتفقه حين يجب، أم صرت حارساً خائفاً على خزائنه؟ هل يمنحك سعة في النفس، أم يزيدك هلعاً من المستقبل؟ قد تتكاثر ممتلكات الإنسان بينما تنقلص حريته؛ لأن كل شيء يملكه يضيف خيطاً جديداً من القلق إلى قلبه.

﴿فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَن﴾: الجملة التي تكشف وهم الاستحقاق

لا يقول الإنسان: أكرمني ربي بنعمة، بل يقول في غروره: ﴿رَبِّي أَكْرَمَن﴾، أي جعلني كريم المنزلّة وميزني. وقد تحمل الجملة في باطنها مقارنةً لم يُصرح بها: أكرمني أكثر من غيري لأنني أفضل منه. وهنا تنتقل النعمة من مادة للشكر إلى أساس للتفاضل الوهمي.

والإنسان يحب أن يفسر نجاحه تفسيراً أخلاقياً يمدحه. فإذا نجح نسب ذلك كله إلى كفاءته، وإذا فشل غيره نسب فشله إلى نقصه. ينسى اختلاف البدايات والفرص والظروف، وينسى أن أبواباً فتحت له ربما أغلقت أمام من هو أذكي وأشدّ اجتهاداً. وهكذا يصنع من النتيجة دليلاً على الجدارة المطلقة، ثم يتخذها مبرراً لقسوة قلبه على المتعثرين.

ومن هذا الوهم تنشأ نظرة اجتماعية ظالمة ترى الفقير مسؤولاً وحده عن فقره، وترى المحروم عاجزاً بالضرورة، كأن أنظمة الظلم والاستغلال والحروب وغياب الفرص لا أثر لها. وليس المقصود إلغاء مسؤولية الفرد عن السعي، بل منع تحويل المسؤولية إلى ستار يخفي حقوق المجتمع، أو ذريعة تبرئ المترفين من واجبهم.

إن الذي يقول: ﴿رَبِّي أَكْرَمَن﴾ قد يذكر الرب بلسانه، لكنه يجعل ذاته مركز الجملة ومعناها. لا يرى من العطاء إلا انعكاس صورته. يتحدث عن فضل

الله، لكن قلبه يهمس باستحقاقه الشخصي؛ يشكر ظاهرياً، ثم يتصرف كأن النعمة اعتراف من السماء بعلو مرتبته.

والإيمان الصادق يغير هذه اللغة الداخلية. إذا جاءت النعمة قال: هذا فضل ورحمة وابتلاء، وأنا أخشى أن أقصر في حقها. لا يتصنع احتقار نفسه، ولا ينكر ما عنده من جهد، لكنه يعلم أن جهده نفسه نعمة، وأن الأسباب لم تكن لتجتمع له لولا تقدير الله. فتثمر المعرفة تواضعاً، لا عجزاً؛ وعملاً، لا اتكالاً؛ ورحمةً بمن لم تُنح له الظروف نفسها.

الوجه الخفي للرخاء

قد يبدو الرخاء خالياً من الألم، لكنه يحمل أخطاراً لا يراها إلا من أبصر قلبه. فالنعمة قادرة على أن تخدر السؤال عن المصير؛ كلها شعر الإنسان بفراغ، اشترى شيئاً جديداً، وكلها هاجت فيه وحشة، أحاط نفسه بمزيد من الضجيج. فتتراكم وسائل الترفيه بينما تبقى الروح جائعة، ويظن أنه سعيد لأنه لا يجد وقتاً ليشعر بتعاسته.

ومن أخطر ما تصنعه النعمة أنها تتيح للإنسان أن يعيش طويلاً بعيداً عن مواجهة ذاته. صاحب الحاجة يعرف بعض ضعفه، أما المترف فيستطيع أن يغطي هشاشته بمظاهر القوة. يحيط نفسه بمن يمدحونه، ويختار من الآراء ما

يربّحه، ويقصي كل صوت يذكره بحدوده، حتى يعيش في قصر نفسي لا تدخل إليه الحقيقة.

وقد يكون الفقر في المال ظاهراً، أما الفقر إلى المعنى فربما يسكن القصور. كم من إنسان اتسع حوله المكان وضاق في صدره الوجود، وكثرت موائده ولم يذق طعم السكينة، وازدحم حوله الناس ولم يجد من يأتمنه على ضعفه. ليس كل حرمان يُرى، وليس كل نعيم يُشترى.

ولهذا لا يذم القرآن النعمة، بل يحذرنا من الكذب الذي يحيط بها. يريد للإنسان أن يستمتع بالطيبات شاكراً، لكن دون أن يجعلها مصدر هويته أو معيار منزلته. فالمتاع الذي يُستخدم يَجَلُّ الحياة، أما المتاع الذي يُعبد فيبتلعها.

﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ﴾: تكرار الابتلاء لتصحيح الفهم

ثم يقول تعالى: ﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ﴾. كرر لفظ الابتلاء في الحالين ليقرر المساواة بينهما من حيث الامتحان. السعة ابتلاء، والتقدير ابتلاء؛ العطاء سؤال، والمنع سؤال. ليست الحياة امتحاناً حين نتألم فقط، بل هي امتحان أيضاً حين تقدر وتملك وتطمئن.

لكن الإنسان لا يرى الامتحان في النعمة لأنه يستمتع بها، ويراه في الضيق لأنه يتوجع منه. الألم يجعله يسأل: لماذا؟ أما اللذة فقلما تدفعه إلى

السؤال نفسه. ولو كان صادق البصيرة لسأل عند الاتساع كما يسأل عند التضيق: لماذا أعطيت؟ ماذا يريد الله مني بهذا العطاء؟ أين موضع الحق فيه؟ إننا نطالب القدر بتفسير نفسه حين يؤلّنا، ولا نطالبه بتفسير نفسه حين يوافقنا. إذا فقدنا الصحة قلنا: لماذا أنا؟ وإذا عادت إلينا ربما لم نقل: لماذا مُنحت فرصة جديدة لا يزال آخرون محرومين منها؟ وإذا ضاق الرزق شعرنا بالابتلاء، وإذا اتسع نسينا أن السؤال قد صار أثقل.

وإعادة لفظ ﴿إِبْتَلَاهُ﴾ ترد الإنسان إلى الوحدة الكامنة وراء اختلاف الصور. فما دام كلا الحالين امتحاناً، فإن السؤال الأهم ليس: هل أعطيت أم مُنعت؟ بل: كيف كنت لله في الحالين؟ قد ينجح فقير بصره ويفشل غني بشحه، وقد ينجح غني بشكره ويفشل فقير بسخطه. ليست الصورة الخارجية هي التي تحسم النتيجة؛ إنما موقف القلب والعمل.

﴿فَقَدَّرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ﴾: التضيق لا يعني الإلغاء

التقدير هنا بمعنى التضيق، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ قُدِّرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ﴾. ولم يقل: فنع عنه رزقه؛ لأن الرزق لم ينقطع بالكلية، وإنما صار مقدراً بقدر أضيّق مما يريد الإنسان. وفي العبارة تذكير بأن القليل رزق أيضاً، وأن اعتياد النعم قد يجعل المرء لا يرى ما بقي له لأنه مشغول بما فاتته.

عندما تضيق الحال، يركز الألم نظر الإنسان على الباب المغلق حتى يغيب عنه كثير من الأبواب المفتوحة. قد يفقد مألماً ويبقى له عقل وصحة وأهل وستر، لكن الخسارة تملأ مجال الرؤية كله. وليس المقصود التقليل من شدة الفقر والحاجة؛ فالجوع ألم حقيقي، والدين هم، والعجز عن علاج مريض قد يمزق القلب. إنما المقصود أن لا تتحول المحنة إلى ستار كامل يمنع رؤية أي بقية من الرحمة.

والقرآن لا يعالج الفقر بكلمات المواساة وحدها، بل سيحمل المجتمع مسؤولية إكرام اليتيم وإطعام المسكين. فلا يصح للغني أن يطلب من الفقير الصبر كي يريح نفسه من العطاء، ولا أن يحول الإيمان بالقدر إلى أداة لتثبيت الظلم. فالذي قدر الأرزاق أمر بالتكافل، وجعل في أموال القادرين حقوقاً، ونهى عن أكل التراث وحب المال حباً يطغى على الواجب.

إن بعض الناس يستخدم العقيدة ليعفي نفسه من الأخلاق؛ يقول للمحروم: هذا قدرك، لكنه لا يسأل نفسه: أليس من قدري أنا أن أقف الآن محتجاً بحاجته؟ قد يكون فقره ابتلاءً له، لكنه ابتلاء لك أيضاً: هل تراه؟ هل تحفظ كرامته؟ هل تعطيه من غير من؟ هل تسعى لتغيير الشروط التي تعيد إنتاج فقره؟

والرزق ليس مألأً وحده، وإن كان المال من أوضح صوره. ثمة رزق في المحبة، وفي العقل، وفي السكينة، وفي القدرة على النهوض بعد السقوط، وفي صديق صادق، وفي دعاء أم، وفي قلب لم تفسده الخيبات. وقد يتسع حساب الإنسان ويضيق رزقه من الطمأنينة، وقد تقل موارده ويفتح له من غنى الروح ما يجعله أوسع صدرًا من أصحاب القصور.

لكن هذه المعاني لا ينبغي أن تتحول إلى تهجيل رومانسي للفقير؛ فالفقير الذي يسلب الإنسان ضروراته ويعرض كرامته للابتزاز مشكلة يجب دفعها، والنبي ﷺ استعاذ من شرور الفتن والدِّين وغلبة الرجال. إنما نفرق بين قيمة الفقير عند الله وبين قسوة وضعه في الدنيا: نرفض أن نجعل حاجته إهانة، ونرفض في الوقت نفسه أن نتركه فيها ثم نطالبه بأن يراها نعمة.

﴿فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانٌ﴾: حين يقرأ الإنسان نقص المال كنقص في

الذات

كما أسرع الإنسان في السعة فقال: ﴿رَبِّي أَكْرَمُنِي﴾، أسرع في الضيق فقال: ﴿رَبِّي أَهَانٌ﴾. إنه لا يقول: ضاق رزقي، بل يحول الوصف الاقتصادي إلى حكم وجودي على نفسه: أنا مهان. وهنا تكمن قسوة الموازين المادية؛ فهي لا تكتفي بحرمان الإنسان من الأشياء، بل تحاول أن تسلبه شعوره بقيمته.

ربما يحتمل الإنسان قلة المال، لكن ما يوجعه أكثر أن يراه الناس أقل قدراً بسببه؛ أن تتغير نبراتهم معه، وأن يُستبعد من المجالس، وأن يُعامل كأن فقره عيب أخلاقي. وعندما يتكرر هذا الاحتقار قد يتسرب الحكم الاجتماعي إلى داخله، فيبدأ برؤية نفسه بعين من ازدروه.

تأتي الآية لتفصل بين الحال والهوية: أنت قد تكون مضيئاً عليك في الرزق، لكنك لست مهائناً عند الله بسبب ذلك. جيبك ليس قلبك، وما نقص من مالك لا ينقص من إنسانيتك. قد تُحرم شيئاً ولا تُحرم القرب، وقد تُغلق دونك أبواب الناس وتظل أبواب السماء مفتوحة.

إن الكرامة التي يمنحها الله للإنسان أعمق من أن يسلبها فقر، وأثبت من أن يمنحها غنى. لهذا يقف الفقير والغني في الصلاة صفّاً واحداً، لا يشتري الغني موضعاً أقرب إلى القبلة، ولا يدفع الفقير إلى مؤخرة العبودية. كلاهما يضع جبهته على الأرض نفسها، وكلاهما لا يملك بين يدي الله إلا صدقه وتقواه.

غير أن قول الإنسان: ﴿رَبِّي أَهَانَنِي﴾ قد ينشأ كذلك من صورة ساذجة عن الإيمان؛ يتوقع أن تكون الطاعة عقداً يضمن له رخاء دائماً، فإذا جاء البلاء اضطرب. كأنه يقول في أعماقه: ما دمت قد آمنت، فلماذا أتلّم؟ وينسى

أن أشد الناس بلاءً كانوا من الأنبياء، وأن الإيمان لا يخرج الإنسان من سنن الحياة، بل يمنحه نوراً يعبر به داخلها.

الله لا يعد المؤمن بدنياً بلا جراح، وإنما يعده ألا يضيع جرحه، وألا تكون محنته عبثاً إذا أحسن حملها، وأن له في كل حال باباً إلى الله. وقد تكون النجاة أحياناً في تغير الظروف، وتكون أحياناً في تغير القلب، وتكون كاملةً يوم يخرج الإنسان من الدنيا إلى دار لا فقر فيها ولا فراق.

ألم المنع ووهم الطرد

حين يُمنع الإنسان شيئاً أحبه، قد يشعر أنه طُرد من العناية. يرى الآخرون يصلون إلى ما أراد، فيقارن أقداره بأقدارهم، ثم يتسلل إلى نفسه سؤال مر: لماذا أنا دونهم؟ والمقارنة من أقسى ما يزيد البلاء، لأنها لا تكتفي بإشعار الإنسان بما ينقصه، بل تعرض عليه باستمرار ما عند غيره.

والإنسان لا يرى من حياة الآخرين إلا واجهاتها. يرى ثمراتهم ولا يرى أثمانها، ويرى ابتساماتهم ولا يرى ما وراء الأبواب المغلقة، ثم يقارن باطن ألمه بظاهر سعادتهم. فيخرج من المقارنة خاسراً، لا لأن حياته خالية من النعم، بل لأنه استخدم ميزاناً غير عادل.

إن لكل إنسان امتحانه الذي لا يظهر كاملاً للآخرين. قد يُعطى أحدهم المال ويُبتلى في ولده، ويُعطى آخر صحةً ويُبتلى في وحدته، ويُمنح ثالث شهرةً ثم يصير أسيراً لنظرات الناس. فلا توجد حياة جمعت كل شيء، كما لا توجد حياة خلت من كل عطاء. والحكمة ليست في أن تطلب نسخةً من قدر غيرك، بل أن تعرف كيف تعبد الله في قدرك أنت.

ولا يعني الرضا أن لا تتألم، أو أن تتوقف عن السعي لتغيير حالك. الرضا ليس مخدراً يطفى الإرادة، بل سلام مع الله يمنع الألم من التحول إلى اعتراض يهدم القلب. تستطيع أن تحزن وتدعو وتعمل وتبحث عن باب آخر، وأنت موقن أن ربك لم يهتك. كان يعقوب عليه السلام يحزن حتى ابيضت عيناه، لكنه قال: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾؛ حمل الألم إلى الله، لا على الله.

﴿كَلَّا﴾: الكلمة التي تهدم ميزاناً كاملاً

بعد التصورين المتقابلين تأتي كلمة واحدة: ﴿كَلَّا﴾. كلمة قصيرة، لكنها تهدم فلسفة اجتماعية كاملة. كلا؛ ليست السعة دليل كرامة مطلقة، وليس الضيق دليل إهانة. كلا؛ لم تفهموا معنى الابتلاء، ولا حقيقة النعمة، ولا ميزان الإنسان.

تأتي ﴿كَلَّا﴾ كأنها ضربة على جدار الوهم. فالإنسان لا يحتاج هنا إلى تعديل بسيط في فكرته، بل إلى كسر الميزان من أساسه. ما دام المال عنده مرادفًا للكرامة، فلن تكفيه المواعظ الجزئية؛ سيظل يعظم الغني ويحتقر الفقير، وقيس نفسه بما يملك، ويعيش خائفًا من فقدان قيمته كلها فقد شيئًا.

﴿كَلَّا﴾ تعيد تحرير الغني والفقير معًا. تحرر الغني من وهم التفوق، والفقير من شعور الهوان؛ تحرر صاحب النعمة من الغرور، وصاحب المحنة من اليأس. تقول للأول: ما أعطيت ليس شهادة براءة، بل ورقة امتحان؛ وتقول للثاني: ما منعت ليس حكمًا بالإقصاء، بل قدر يختبر صبرك وسعيك وقلبك.

ولو استقرت هذه الكلمة في وعي المجتمع لتغيرت علاقاته. لما صار صاحب المال فوق النقد، ولما اضطر الفقير إلى الانحناء كي يُعترف بإنسانيته، ولما قُدِّم أهل الثراء في المجالس لمجرد ثرائهم، ولما ظن المتعثر أن حياته فقدت معناها. سيعود المال إلى حجمه الطبيعي: وسيلة ضرورية ذات أثر كبير، لكنها ليست روح الإنسان ولا مقياسه الأخير.

وتكشف ﴿كَلَّا﴾ أن الخلل لم يكن في القدر، بل في القراءة. الله ابتلى، والإنسان أساء الفهم؛ الله أعطى ليسأل، فظن الإنسان أن العطاء نتيج؛ والله ضيق ليختبر، فظن الإنسان أن التضيق إهانة. وكم من آلامنا تتضاعف لا بسبب الحادثة وحدها، بل بسبب التفسير الذي نضعه لها! فقدان الشيء مؤلم،

لكن الاعتقاد بأن فقد يعني أن الله هجرك أشد ألمًا. والضيق شاق، لكن تحويله إلى حكم بانعدام قيمتك يضيف إلى الفقر فقرًا داخليًا.

والوحي لا يغير الأحداث الماضية، لكنه يغير موضعها في وعينا؛ يعيد كتابة معناها حتى لا تبقى سكينًا مغروسة في الهوية. قد لا يعيد إليك ما فقدت، لكنه يحركك من الاعتقاد أن فقدته ألغى كرامتك. وقد لا يفتح الباب فورًا، لكنه يمنع الباب المغلق من أن يحجب عنك رب الأبواب.

الامتحان الحقيقي: ماذا فعلتم بالنعمة؟

بعد ﴿كَلَّا﴾ لا تنتقل الآيات إلى شرح نظري طويل، بل تكشف الدليل العملي على سوء فهم النعمة: ﴿بَلْ لَا تُكْرُمُونَ الْيَتِيمَ﴾. كأنها تقول: لستم مكرمين حقًا لمجرد أن أموالكم كثرت؛ فاختبار الكرامة يظهر في الطريقة التي تعاملون بها من لا مال له ولا قوة.

الإنسان يقول: ﴿رَبِّي أَكْرَمَنِي﴾، فيجيبه القرآن: إن كنت قد أكرمت بالنعمة، فأين أثر هذا الإكرام في اليتيم؟ كيف تطلب لنفسك كرامة لا تمنح منها نصيباً لمن حولك؟ وكيف تجعل المال دليل قربك من الله، ثم تستخدمه في الابتعاد عن عبادته؟

إن النعمة التي لا تعبر منك إلى غيرك قد تتحول إلى حجاب. أعطاك الله لكي يرى في عطائك شكرًا، لا لكي تجلس الخير عند حدود ذاتك. وإكرامك الحقيقي لا يثبت بما جمعته، بل بما أقرته من حق؛ لا بما ارتفع من شأنك بين الناس، بل بما ارتفع على يدك من شأن الضعفاء.

ومن هنا تنتقل السورة من تصحيح التصور إلى محاكمة السلوك: من قول اللسان ﴿رَبِّيَ أَكْرَمَنِ﴾ إلى حال اليد التي لا تكرم اليتيم، ومن شعور الإنسان بالاستحقاق إلى واقع المسكين الذي لا يجد طعامًا، ومن النعمة التي افتخروا بها إلى التراث الذي يأكلونه، والمال الذي يحبونه حبًا جمًّا.

فالفكرة الخاطئة لا تبقى فكرة. حين يُقاس الإنسان بالمال، يصبح اليتيم قليل الوزن؛ وحين تصبح النعمة استحقاقًا شخصيًا، يختفي حق المجتمع فيها؛ وحين يرى الغني نفسه مكرمًا على نحو مطلق، يتعامل مع المحتاج كأنه خارج دائرة الإكرام. وهكذا تبدأ الطريق من تفسيرٍ فاسدٍ للرزق وتنتهي إلى مجتمع قاسٍ، يكثر فيه المال وتقل فيه الرحمة.

الفصل الخامس

﴿بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ﴾: الامتحان الأخلاقي عند أبواب الضعفاء

﴿كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ۖ وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ ۚ
وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا ۖ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾

تكشف هذه الآيات أن الله لا يزن المجتمعات بما تقوله عن نفسها، بل بما تفعله بأضعف أفرادها. قد ترفع الجماعة شعارات الكرامة، لكن حقيقة كرامتها تظهر عند باب يتيم لا يملك قوة المطالبة؛ وقد تتحدث عن الإيمان، لكن صدق إيمانها يظهر أمام جوع مسكين لا تراه وسائل العرض؛ وقد تفتخر بأخلاقيتها، ثم تؤكل فيها حقوق النساء والصغار في الميراث، فيكشف المال ما أخفته الكلمات.

إن الضعيف هو الامتحان الأكثر صدقاً للأخلاق؛ لأن معاملته لا تحمل غالباً منفعة عاجلة. نحن نحسن إلى القوي أحياناً لأننا نخشى ضرره أو نرجو نفعه، ونكرم صاحب المكانة لأن كرمنا سيعود إلينا في صورة تقدير. أما اليتيم الذي لا يملك جزاءً، والمسكين الذي لا يستطيع رد الجميل، فإن معاملتنا لهما تكشف مقدار ما فينا من رحمة خالصة لله.

﴿بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ﴾: الكرامة التي لا تثبت إلا حين تُمنح

قال الإنسان: ﴿رَبِّ أَكْرَمَنِي﴾، فجاء الرد من جنس دعواه: ﴿بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ﴾. يا لها من مقابلة دقيقة! يتحدث الإنسان عن كرامته، بينما يكشف الله غيابه عن كرامة غيره. يريد أن يجعل ما تلقاه من نعمة شهادة على فضله، لكن الشهادة الحقيقية معلقة بطريقة تصرفه فيها.

واليتيم هو من فقد أباه قبل البلوغ، ففقد بفقده جانباً من الحماية والرعاية والكسب. ولا يقتصر يُتيمه على غياب شخص من البيت؛ إنه فراغ يمتد إلى الشعور بالأمان، وإلى الصورة التي يرى بها العالم. الطفل الذي يرى الآخرين يعودون إلى آبائهم يحمل سؤالاً لا يحسن دائماً التعبير عنه: من يسندني إذا مالت بي الحياة؟

لهذا لم يقل الله: لا تطعمون اليتيم فقط، بل قال: ﴿لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ﴾. فحاجة اليتيم ليست إلى الخبز وحده، وإنما إلى الكرامة؛ إلى معاملة تحفظ إنسانيته، وتمنعه من الشعور بأنه عبء أو موضوع للشفقة المهينة. قد تعطيه مالا وتكسر قلبه بنظرة، وقد توفر له حاجته وتذكره كل مرة بأنه محتاج إليك. أما الإكرام فيجمع العطاء والرفق، والرعاية والاحترام، وحفظ المال والنفس والمستقبل.

اليتيم لا يريد يداً ترمي إليه ما فضل عنها ثم تنسحب، بل يريد مجتمعاً يعوضه بعض ما فقد: حناناً لا يستغل ضعفه، وعدلاً يحمي ميراثه، وتعليماً يفتح مستقبله، وبيتاً لا يشعر فيه أنه زائد. إن إكرامه ليس لحظة صدقة، بل بناء بيئة يستطيع أن ينمو فيها دون أن يتحول فقده المبكر إلى حكم على حياته كلها.

ومن جمال التعبير أن القرآن جعل الإكرام فعلاً جماعياً: ﴿لَا تُكْرِمُونَ﴾. فمسؤولية اليتيم لا تقع على فرد محسن وحده، بل على المجتمع بمؤسساته وعلاقاته. قد يطعم فرد يتيمًا، لكن العدالة تحتاج إلى نظام يحمي حقوق الأيتام جميعاً، إلى رقابة على أموالهم، ومنع استغلالهم، وضمان تعليمهم وعلاجهم. الرحمة الفردية عظيمة، لكنها لا تغني عن بناء عدل عام.

اليتيم بوصفه امتحاناً لقوة المجتمع

ليس ضعف اليتيم نقصاً فيه، بل امتحاناً فينا نحن. لقد وضعه الله في طريق المجتمع ليسأل القادرين: ماذا تفعلون حين تُعطون القوة على من لا يقدر على ردكم؟ إن شرف القوة لا يظهر حين تواجه قوةً مثلها فقط، بل حين تكف نفسها عن الضعيف وتحميه.

وقد كان النبي ﷺ يتيمًا، ليصبح اليتيم في الوعي الإسلامي موضع قرب من السيرة لا موضع ازدراء. خرج الرسول الذي غير وجه التاريخ من طفولة

فقدت الأب قبل أن تراه، ثم فقدت الأم في سن مبكرة. وكأن الله أراد أن يهدم منذ البداية الوهم الذي يربط العظمة بوفرة السند الأرضي؛ فقد ينشأ الإنسان قليل الحماية في أعين الناس، وهو محفوظ لعناية تغير العالم.

﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى﴾؛ هذه الآية لا تحوّل ألم اليتيم، لكنها تكشف أن غياب السند البشري لا يعني غياب الرعاية الربانية. وقد يهين الله لليتم قلوباً رحيمة تكون له أبواباً من لطفه. لذلك فإن من يكفل يتيمًا لا يتفضل على الله، بل يتشرف بأن يكون وسيلةً في تدبير رحمته.

والمجتمع الذي يهمل أيتامه يصنع جراحاً ستعود إليه لاحقاً. فالطفل الذي ينوبه حماية ولا تعليم ولا احتواء قد يحمل إلى مستقبله شعوراً عميقاً بالتخلي. ليست الرعاية إحساناً فردياً فحسب، بل وقاية حضارية؛ لأن الطفل الذي يُكرم اليوم يمكن أن يصبح غداً إنساناً قادراً على إكرام غيره، أما الذي يُكسر فقد يحتاج عمراً كي يتعلم أن العالم ليس كله يداً قاسية.

لكن إكرام اليتيم لا يعني حبسه في هوية الفقد. بعض الناس يذكرونه دائماً بأنه يتيم حتى يصبح اليتيم اسمه الأول. والإكرام الحقيقي يساعده على أن يرى نفسه إنساناً له مواهب وأحلام، لا مجرد طفل فقد أباه. نحن لا ننكر جرحه، لكننا لا نختصره فيه.

من اليتيم الفرد إلى اليتيم الحضاري

وثمة يتم يتجاوز فقد الأب المباشر: أطفال فقدوا أوطانهم بالحروب، أو نشؤوا وآبأؤهم حاضرون بالأجساد غائبون بالرحمة، أو كبروا في بيوت لم يسمعو فيها كلمة أمان. وليس هؤلاء أيتاماً في الحكم الفقهي، لكن في تجاربهم نصيب من وحشة اليتيم يستدعي الوعي والرعاية.

قد يكون الأب حياً، لكن الطفل لا يجد عنده إلا النقد أو العنف، فينشأ يتيماً الحنان. وقد تكون الأسرة موجودة، لكن الشاشات والركض خلف الرزق ابتلعا الحوار، فيصبح الأبناء غرباء داخل البيت. إن معنى الإكرام الذي تفتحه الآية يذكرنا بأن الطفل لا يعيش بالطعام وحده؛ يحتاج إلى عين تراه، وأذن تسمع خوفه، ويد لا تضرب ضعفه.

والمجتمعات نفسها قد تعاني يتماً معنوياً حين تفقد المرجعيات الرحيمة، وتترك أجيالها أمام ضييج الأفكار بلا توجيه حكيم. ليست التربية ملء الذاكرة بالمعلومات، بل منح الروح إطاراً تفهم به العالم، وتعرف به الخير من الشر، وتبني به علاقةً سوية مع الله ونفسها والناس.

﴿وَلَا تَحَاضُونَ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ﴾: من مسؤولية الفرد إلى ضمير

الجماعة

لم تقل الآية: ولا تطعمون المسكين، بل قالت: ﴿وَلَا تَحَاضُونَ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ﴾. والحض هو الحث المتبادل والتحريض على الخير. وهذا التعبير يوسع دائرة المسؤولية: ليس المطلوب أن تطعم وحدك فحسب، بل أن تسهم في تكوين مجتمع يرى الجوع عاراً عليه، ويتواصى بإزالته.

قد يعجز الفرد عن إطعام كل محتاج، لكنه يستطيع أن يدعو، وينظم، ويشارك، ويوقظ غيره. وحين يغيب التحاض، يتحول الجوع إلى مشهد مألوف لا يحرك أحداً. تمر الأخبار والصور، يتألم الناس لحظات، ثم ينتقلون إلى شأن آخر، لأن الألم الذي لا يتحول إلى فعل يذوب في كثرة المشاهد.

والآية تقول: ﴿عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ﴾، وكأن الطعام حقه الذي ينبغي أن يصل إليه، لا منحة تجعل صاحبه مديناً بالإذلال. لم تقل: على طعامكم للمسكين، بل أضافت الطعام إليه. ففي أموال المجتمع نصيب معلوم لمن حرّمته الظروف من الكفاية؛ وحين يصل الحق إلى صاحبه ينبغي ألا تصحبه منّة.

إن أعظم ما يفسد الصدقة أن يستخدمها المعطي لتضخيم نفسه وتصغير الآخر. يعطيه بيد، ويسلب كرامته بلسان أو صورة أو تذكير. أما القرآن فيريد

عطاءً يحفظ الوجه قبل أن يسد الجوع، ويصل إلى المحتاج في ستر، ويشعره أنه عضو كامل في المجتمع، لا هامش يتعيش على فضلات المركز.

والمسكين ليس مجرد معدة خاوية، بل إنسان له قصة وحياء وأحلام. قد يخفي حاجته لأنه يخشى انكسار السؤال، وربما ظهر متماسكاً بينما يعود إلى بيت لا يجد فيه ما يكفي أبنائه. لذلك تحتاج الرحمة إلى فطنة؛ أن تبحث عن المحتاج الذي لا يعلن حاجته، وأن تفهم أن بعض الصمت استغاثة لا صوت لها.

مجتمع لا ينام وفيه جائع

إن الجوع ليس نقصاً في الطعام دائماً، بل قد يكون خللاً في توزيعه. ربما تمتلئ المخازن والموائد، ويبقى المسكين محروماً لأن المال يدور في دائرة مغلقة، أو لأن الترف يلتهم ما يكفي لسد ضروريات كثيرين. وهنا لا تعالج الآلة حالة فردية عابرة، بل تفضح مجتمعاً يجب المال حباً جمّاً، فيصبح الجوع عنده نتيجة أخلاقية لنظام الأولويات.

حين تُتفق الأموال على المظاهر التي تغذي التفاخر، بينما يُترك المريض عاجزاً عن الدواء، فنحن أمام خلل في معنى الحضارة. وحين يُهدر الطعام لأن

أصحابه لا يحتاجونه، بينما يحسب آخرون عدد اللقم، فالمشكلة ليست في قلة الموارد وحدها، بل في موت الصلة بين القلوب.

والتحاض يصنع هذه الصلة. إنه يحول الرحمة من انفعال فردي إلى ثقافة عامة؛ يتحدث بها الخطيب، ويعلمها الأب، وتبني لها الدولة سياسات، وينظم لها الناس مؤسسات. فلا يبقى إطعام المسكين موسماً عابراً، بل يصير جزءاً من تعريف المجتمع لنفسه.

ولا يكفي الإطعام المؤقت إن كانت أسباب المسكنة قابلةً للعلاج. فمن كرامة المسكين أن يُعان على الاستغناء، وأن يفتح له باب العمل والتعليم والإنتاج. الصدقة تسد حاجة اليوم، والتمكين يحمي غده. والمجتمع الرحيم يجمع بينهما: لا يترك الجائع حتى يكتمل مشروع طويل، ولا يكتفي في الوقت نفسه بإدامة حاجته كي يظل موضوعاً للعطاء.

﴿وَتَأْكُلُونَ التَّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا﴾: حين تلتهم القوة حقوق الغائبين

ثم تنتقل السورة إلى المال الموروث: ﴿وَتَأْكُلُونَ التَّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا﴾. والتراث هنا الميراث، والأكل كناية عن الاستيلاء والانتفاع، و«لماً» أي جمعاً شديداً، يجمع صاحبه الحلال إلى الحرام، ونصيبه إلى نصيب غيره، دون مبالاة بحدود الله.

وفي الجاهلية كان الأقوياء قد يستأثرون بالميراث، ويحرمون النساء والصغار لأنهم لا يقاتلون ولا يحمون القبيلة. فجاء القرآن ليقرر أن الاستحقاق لا يتوقف على القدرة على حمل السلاح، وأن الضعيف له حق لا يسقط بعجزه عن انتزاعه.

وهنا يعود اليتيم إلى المشهد من باب آخر. فقد يُظهر الناس نحوه الشفقة علناً، ثم يأكلون ماله سرّاً. والقرآن لا يكتفي بالعاطفة نحو اليتيم، بل يحمي حقوقه القانونية والمالية. فالرحمة التي لا تمنع اليد من ماله رحمة كاذبة، والدمعة التي لا ترد إليه ميراثه نوع من التمثيل الأخلاقي.

وما أقسى أن يتحول موت الأب من مصيبة واحدة إلى باب مصائب؛ يفقد الطفل حاميه، ثم تمتد الأيدي إلى ما ترك له. وبدل أن يجبر الأقارب كسره، يستغل بعضهم عجزه. إن أكل مال اليتيم ليس سرقة مال فقط، بل سرقة أمان من فقد أمانه الأول.

ويكشف الميراث حقيقة النفوس؛ فهو مال يأتي غالباً بلا تعب من الوارث، وقد يجتمع حوله الإخوة والأقارب الذين كانت تجمعهم المودة، ثم تفرقهم الأطماع. تظهر خصومات كامنة، ويُعاد تفسير القرابة على ضوء النصيب، وقد يطول النزاع حتى يصبح مال الميت سبباً في موت العلاقة بين الأحياء.

إن المال حين يدخل بين القلوب يكشف ما فيها. ليس هو الذي يصنع الجشع من العدم، لكنه يخرج من مخبئه. ورب إنسان كان يتحدث عن الرضا والرحمة، فلما جاء تقسيم التركة تبدلت لغته، وصار يبحث عن تأويل يحفظ مصلحته. عندها لا تكون المعركة على قطعة أرض وحدها، بل على صدق العبودية: هل يخضع الإنسان لحدود الله حين تخالف هواه؟

ميراث النساء: الحق الذي لا تسقطه الأعراف

ومن أظهر صور أكل التراث حرمان النساء من الميراث، كأن المال حق للذكور وحدهم، أو كأن المرأة إذا طالبت بما فرض الله صارت قاطعة للرحم. وقد تنقلب الموازين حتى يمدح من أخذ حقها حفاظاً على العرف، وتُلام هي لأنها رفضت الظلم.

لكن الله هو الذي قسم الموارث، ولم يتركها للأمزجة ولا لضغط الأقوى. والرضا بقسمة الله ليس شعاراً يقال عند المصائب فقط، بل امتحان عملي حين تنقص القسمة نصيب الإنسان مما يشتهي. من تحايل ليأخذ حق أخته أو ابنته لا يحافظ على الأسرة، بل يبني ظاهر الصلة على باطن المطالبة. وقد تصمت المرأة حياءً أو خوفاً من القطيعة، لكن صمت المظلوم لا يحول المال إلى حلال. والحقوق لا تسقط لأن أصحابها لم يقدرُوا على المطالبة

بها. إن الله بالمرصاد للهال حين انتقل، وللكمة التي ضغطت، وللنطرة التي خوفت، وللتوقيع الذي انتزع بلا رضا.

صلة الرحم لا تعني أن يتنازل الضعيف دائماً كي يبقى القوي راضياً. بل من صلة الرحم أن تحفظ له حقه، وأن تجعله يشعر أن قربك منك حماية لا تهديد. أما القرابة التي تلتهم حقوق أفرادها ثم تطالبهم بالصمت، فهي اسم جميل غطي به ظلم قبيح.

﴿أَكْلًا لَّمَّا﴾: الجشع الذي لا يميز

تصور العبارة إنساناً لا ينتقي ولا يتوقف؛ يلم المال لماً، ويجمع ما يجوز وما لا يجوز، كأن شهوة الامتلاك عطلت فيه القدرة على التمييز. والجشع لا يبدأ دائماً بالحاجة، بل قد يزداد مع الغنى؛ كلما اتسع ما يملك الإنسان، اتسعت دائرة ما يخشى فقده، وأصبح «المزيد» حاجةً نفسية لا نهاية لها.

المشكلة في الجشع أنه يحو الفواصل الأخلاقية. المال كله عند الجشعان متشابه ما دام يستطيع الوصول إليه؛ لا يرى وراء القطعة النقدية دمةً أو حقاً أو خصومةً يوم القيامة. يرى القيمة المادية ولا يرى التاريخ الأخلاقي للهال: من أين جاء؟ ومن حُرِمَ بسببه؟ وما الكلمة التي زُورت ليصل إلى يده؟

والإسلام لا يعادي جمع المال من حلال، ولا يذم الغنى في ذاته؛ فقد كان من الصحابة أغنياء بذلوا أموالهم في وجوه الخير. إنما يذم أن يصبح الجمع غايةً تبتلع الحدود، وأن يتحول المال من مملوك إلى مالك. فالفرق عظيم بين إنسان يملك المال ليقيم به حياته وواجبه، وإنسان يكتنز المال ليقيم عليه هويته.

﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾: حين يستقر الضم في القلب

تصل السورة إلى الجذر النفسي: ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾؛ أي حبًّا كثيرًا شديدًا. لم تكتف الآية بوصف الأفعال: عدم إكرام اليتيم، وغياب التحاض على طعام المسكين، وأكل الميراث؛ بل كشفت المحرك الكامن وراءها جميعاً: الحب المتضخم للمال.

فالمال لا يفسد لأنه ورق أو معدن أو رقم، بل لأن القلب يسكب فيه معاني أكبر من حجمه. يراه أماناً مطلقاً، وقوةً، وخلوداً، ووسيلةً للسيطرة، وشهادةً على النجاح. وكلما حمل المال هذه المعاني، ازداد التعلق به حتى يصير فقداه أشبه بفقدان الذات.

والحب الطبيعي للمال داخل في فطرة الإنسان؛ لأنه وسيلة إلى الطعام والمسكن والعلاج وحفظ الكرامة. لكن الآية تدم الحب الجم، الحب الذي يفيض عن حد الحاجة فيحتل مركز القلب. ومن علامات هذا الحب أن

يقدم الإنسان المال على الحق، وأن يحزن لخسارة مبلغ أكثر مما يحزن لخسارة مبدأ، وأن يقبل المذلة من أجل زيادة، أو يوقع المذلة بغيره خوفاً من نقصان. المال صنم شديد الخفاء؛ لأن عابده لا يسجد له بجهته، بل بقراراته. قد يصلي الإنسان لله، ثم حين يتعارض أمر الله مع مصلحته المالية يظهر موضع العبادة الحقيقي. فإذا تحايل على الربا، أو أكل الميراث، أو غش في التجارة، أو منع الأجير حقه، فقد دل سلوكه على أن المال عند لحظة الاختبار كان أرفع صوتاً في قلبه من الأمر الإلهي.

ولا يعني الزهد أن تترك المال أو تظهر الفقر، بل أن لا يسكن المال في الموضع الذي خُلق لمعرفة الله. قد يكون الإنسان غني اليد زاهد القلب، يبذل دون أن يشعر أن جزءاً من روحه قد اقتطع؛ وقد يكون فقيراً لا يملك إلا القليل، لكن قلبه معلق بما في أيدي الناس، فيكون عبده دون أن يملكه.

الزهد حرية، لا حرمان. أن تستخدم الأشياء ولا تستخدمك، وأن تفرح بها دون أن تنهار إذا فارقتك، وأن تعرف قيمتها دون أن تجعلها قيمة لك. وليس التحرر من المال في احتقاره، بل في إعادته إلى مرتبته: خادماً للحياة لا رباً لها.

لماذا يحب الإنسان المال كل هذا الحب؟

يحب الإنسان المال لأنه يعده بشيء يشبه السيطرة على المستقبل. المال طعام مؤجل، ودواء محتمل، ومسكن، وقدرة على مواجهة الطوارئ. لذلك يتداخل حبه مع خوف الإنسان من الغد. وكلها ضعفت ثقته بالله، حاول أن يلبي من الرصيد جداراً يحميه من المجهول.

والأخذ بالأسباب والادخار المشروع من الحكمة، لكن الوهم يبدأ حين يعتقد الإنسان أن المال يستطيع إلغاء هشاشته. كم من غني جاءه ما لم يدفعه ماله، وكم من مال كثر ثم تبددت قيمته، وكم من صاحب ثروة عاش أسير مرض لا يشتري منه ساعة عافية! ليست العبرة في ترك الأسباب، بل في عدم تعليق القلب بها تعليقاً يحجب مسببها.

ويحب المال كذلك لأنه يمنحه قدرةً على الحصول على إعجاب الناس. في مجتمعات اختل ميزانها، قد لا يُسأل الغني عن خلقه بقدر ما يُسأل عن ثروته، وتفتح له الأبواب ولو كان فقير المروءة. عندها لا يشتري المال الأشياء فقط، بل يشتري حضوراً اجتماعياً وصوتاً مسموعاً. وهذا يضاعف فتنه؛ لأن الإنسان بطبعه يحب الاعتراف.

غير أن الاحترام الذي يشتريه المال يرحل معه غالباً. من أحبك لما في يدك، أحب في الحقيقة ما في يدك لا أنت. وحين يتناقص ما تملك، تتكشف

المسافة بين المحبة والمصلحة. أما الذين عرفوا قلبك وثبتوا معك في ضعفك، فهم رزق لا يقدر بثمن.

ويحب المال لأنه يمنح وهم الاستغناء عن الآخرين. والإنسان يخاف الحاجة لما قد يصحبها من ذل، فيجمع كي لا يمد يده. وهذا مقصد مفهوم، لكن الجمع قد ينقلب إلى عزلة؛ يظن أن حاجته إلى الناس انتهت، وينسى أن الإنسان لا يستغني بالمال عن المودة والصدق والدعاء. قد يدفع لمن يخدمه، لكنه لا يستطيع أن يشتري قلباً يحبه بلا مصلحة.

من حب المال إلى قسوة المجتمع

ترتب الآيات مساراً نفسياً واجتماعياً واضحاً: حب المال حباً جمّاً يقود إلى أكله بغير حق، وإلى غياب التحاض على إطعام المسكين، وإلى عدم إكرام اليتيم. كلما تضخم تعلق القلب بالمال، صغر في عينه حق الآخرين؛ لأنه يراهم منافسين على ما يريد الاحتفاظ به.

وهكذا لا يكون البخل نقصاً في العطاء فقط، بل خللاً في الرؤية. البخيل لا يرى حاجة المحتاج بوضوح؛ يراها تهديداً لمخزونه. وقد يبحث عن عيب في الفقير كي يعفي نفسه من مساعدته، فيقول: لو اجتهد لما افتقر، أو لعله يكذب، أو هناك من هو أولى. وربما كانت بعض هذه الاحتمالات صحيحة في

حالات معينة، لكن النفس المحبة للمال تستخدمها أحياناً لا للتحقق، بل للهروب.

وحين ينتشر هذا الحب في مجتمع، تتحول العلاقات إلى حسابات، ويقاس الناس بمقدار منفعتهم، وتراجع المروءة أمام الربح. يصبح النجاح أن تجمع أكثر، لا أن تكون أنفع، ويربى الأبناء على المنافسة من أجل المكانة، دون أن يتعلموا معنى الكفاية أو البذل. ثم يتعجب المجتمع من قسوته، مع أنه غرس كل يوم في أفرادهِ أن قيمة الإنسان تساوي ما يملك.

العلاج: أن يصبح المال طريقاً لا إقامة

لا يعالج القرآن حب المال بإنكار الحاجة إليه، بل بتوسيع أفق الإنسان حتى يرى ما وراءه. حين يؤمن بالآخرة، يعرف أن ما أنفقه في الحق لم يذهب، بل انتقل من ملك قابل للفناء إلى أجر باق. وحين يرى نفسه مستخلفاً، يعرف أن الملك لله، وأن ما في يده عارية تؤدي منها الحقوق.

والصدقة تدريب عملي على الحرية. في كل مرة يخرج الإنسان شيئاً يحبه لله، يكسر حلقة من السلسلة التي يشده بها المال. ليس المحتاج وحده هو الذي ينتفع بالعطاء؛ المعطي نفسه يُنقذ من شحه، ويكتشف أنه قادر على البذل دون أن ينقص وجوده.

وقد جعل الله في الإنفاق لذة لا يعرفها من حبس يده. لذة أن ترى كربة تنفرج، أو طفلاً يفرح، أو مريضاً يجد دواءه، أو طالباً يكمل تعليمه. عندها يتحول المال من رقم صامت إلى حياة تتحرك في حياة الآخرين، ويجد صاحبه أنه لم يفقد ما أعطى، بل حرره من ضيق الخزائن إلى سعة الأثر.

لكن السورة لا تترك الإنسان ليسترسل طويلاً في وهم الملك. فبعد ذكر المال الذي يحبه، والميراث الذي يلتمه، ستأتي اللحظة التي تُدك فيها الأرض نفسها: ﴿كَلاَّ إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾. الأرض التي جمع منها المال، وتخاصم على ميراثها، وبني فوقها شعوره بالثبات، ستُسوّى وتهدم معالمها.

هناك، لن يبقى في يد الإنسان شيء مما ضم عليه أصابعه، وسيظهر أن ما أعطاه الله هو وحده الذي نجا من الفناء. سيأتي يوم لا يسأل فيه: كم تركت؟ بل: ماذا قدمت؟ لا: كم أحببت المال؟ بل: هل استطعت أن تحب الله والحق والإنسان أكثر منه؟

وهكذا تضعنا السورة على حافة المشهد الأخير. بعد الفجر والليالي، وبعد مصارع الطغاة، وبعد امتحان النعمة واليتم والمسكين والمال، تبدأ الأرض في الاهتزاز تحت كل الأوهام. لم يعد الحديث عن انهيار حضارة بعينها، بل عن انهيار المسرح الأرضي كله؛ لم يعد السوط مصبوباً على عاد وثمود وفرعون

سُورَةُ الْفَجْرِ

وحدهم، بل جاء يوم الحساب الذي تقف فيه الإنسانية بين يدي ربها،
وينكشف فيه لكل نفس ما صنعت.

الفصل السادس

﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾: حين تنهار الأرض التي بنى

الإنسان عليها أوهامه

﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا
وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى يَقُولُ يَا لَيْتَنِي
قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدٌ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقُهُ أَحَدٌ

للمرة الثانية في هذا المقطع تأتي كلمة ﴿كَلَّا﴾؛ جاءت الأولى لتبطل وهم الإنسان حين ظن أن سعة الرزق إكرام مطلق، وأن تضييقه إهانة، وتأتي الثانية لتقطع استرسال النفس في حب المال وأكل الحقوق والغفلة عن المصير. وكأنها طريقة حاسمة على باب قلب أوشك أن يغلق على الدنيا: كلا، لن يبقى هذا كله كما هو؛ كلا، ليست الأرض مقرأً أبدياً، ولا المال الذي تجمعونه حصناً، ولا القوة التي تستندون إليها قادرةً على منع اليوم الآتي.

كانت ﴿كَلَّا﴾ الأولى تصحيحاً للميزان، أما الثانية فهي هدمٌ للمسرَح الذي أقيم عليه الميزان الفاسد. فالإنسان ظن أن كرامته في مقدار ما يمتلك من الأرض، وأن قوته في اتساع سلطانه عليها، وأن وجوده يرسخ كلما جمع منها

وبنى فوقها. ثم تأتي القيامة فتدك الأرض نفسها، فلا يبقى جبلٌ يرمز إلى الثبات، ولا قصر يعلن التفوق، ولا حدٌ فاصل يقال عنده: هذا لي وهذا لك. الأرض التي شهدت صراع الإنسان على الملك تطوى صفحتها، والميراث الذي أكل، والأموال التي جُمعت، والحدود التي سفكت عندها الدماء، كل ذلك يفقد معناه المادي، ولا يبقى منه إلا معناه الأخلاقي: من ظلم؟ ومن عدل؟ من أخذ حقاً؟ ومن أعاده؟ من أطعم؟ ومن حبس؟ من أحب المال حتى عبده؟ ومن جعله طريقاً إلى رضا الله؟

من دك حضارات الطغاة إلى دك الأرض كلها

عرضت السورة من قبل مصارع عاد وثمود وفرعون. انهارت حضارات، وبقيت الأرض تحمل آثارها، ثم قامت فوقها حضارات أخرى. كان السقوط جزئياً في المكان والزمان: قوم يرحلون، وأرض تبقى؛ قصر ينهدم، وجبل يظل؛ جيل يموت، وآخر يرث العالم.

أما هنا فلا حديث عن حضارة تسقط لتقوم أخرى مكانها، بل عن نهاية العالم الأرضي كله: ﴿إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾. لم يعد هناك تاريخ جديد يكتب بعد هذا الحدث، ولا فرصة أخرى يستدرك بها الإنسان ما فات. لقد وصل الزمن إلى نهايته، وبلغ الامتحان لحظة تسليم الأوراق.

وهذا التصاعد في بناء السورة عجيب الدلالة؛ فقد بدأ بانسحاب الليل، ثم باندثار أمم، ثم كشف زوال المال، حتى انتهى بزوال الأرض التي حملت ذلك كله. إنها تنزع عن الأشياء أوهام الديمومة طبقةً بعد طبقة: الليل لا يدوم، والحضارة لا تدوم، والرخاء لا يدوم، والإنسان لا يدوم، والأرض نفسها على صورتها الراهنة لا تدوم. ولا يبقى إلا الله، وما كان خالصاً لوجهه. إن الإيمان بالقيامة ليس إضافةً هامشيةً إلى تصور الحياة، بل هو الذي يضع كل شيء في حجمه الصحيح. من ظن أن الأرض هي البداية والنهاية، اضطر أن يطلب منها كل شيء: الخلود، والعدل الكامل، والتعويض التام، والسعادة التي لا يعقبها ألم. وحين تعجز الدنيا عن منحه ذلك، إما أن يئأس، وإما أن يتشبث بما فيها تشبث الغريق.

أما من عرف أن الأرض مرحلة لا خاتمة، فإنه لا يحتقرها ولا يهجر مسؤوليته فيها، لكنه لا يطلب منها ما لم تُخلق لتمنحه. يعمرها، وقيم العدل قدر استطاعته، ويحب ويعمل ويزرع، وهو يعلم أن الثمرة الكاملة ليست هنا، وأن مظالم لم تُحسم في الدنيا تنتظر محكمةً لا يضيع عندها حق.

﴿دُكَّتِ الْأَرْضُ﴾: سقوط جغرافية الامتلاك

الدك هو التكسير والتسوية الشديدة حتى تنزل المرتفعات والمعالم. وتكرر المصدر في قوله: ﴿دَكَّا دَكًّا﴾ يزيد المشهد قوةً وتتابعاً، دكٌ بعد دك، حتى لا يبقى من صورة الأرض المألوفة شيء يعتمد عليه الوهم البشري.

كم من إنسان عاش يظن أن الأرض التي يملكها هي امتداد لذاته؛ يخاصم من أجلها، ويقطع رحمه عند حدودها، وربما أخذ منها ما ليس له. ثم يخرج منها عند الموت إلى حفرة صغيرة، ولا يحمل من وثائق الملك ورقةً واحدة. ومع ذلك تبقى الأرض لغيره، فيتنازع عليها ورثته كما تنازع هو من قبل.

أما يوم القيامة فحتى هذا الإرث المؤقت ينتهي. تُدَكُّ الأرض التي كُتِبَتْ عليها الأسماء، فتسقط معها فكرة الملك البشري المطلق. يظهر أن الجميع كانوا عابرين، وأن المالك على الحقيقة هو الله، وأن الإنسان لم يكن إلا مستخلفاً في مساحة محدودة وزمن محدود.

وإذا استقر هذا المعنى في القلب تغيرت علاقته بالأشياء. لا يعود يرى بيته أو أرضه أو ثروته جزءاً من خلوده، بل أمانةً تستعمل في زمنها. يفرح بها، لكنه لا يظلم لأجلها؛ يحفظها، لكنه لا يقطع بسببها رحمه؛ يورثها وفق شرع الله، لا وفق هواه. فمن علم أن الأرض ستدك، هان عليه أن يتنازل عن باطلٍ اقتطعه منها، وخاف أن يحمل إلى الآخرة شبراً من ظلم.

والدك يسوي المرتفعات، وفي ذلك معنى يلائم سياق السورة. عاد ارتفعت بعمرها، وثمود احتمت بجبالها، وفرعون ثبت ملكه بأوتاده؛ ثم يأتي اليوم الذي تزول فيه كل علامات الاستعلاء. لا مكان مرتفع يعلن عن امتياز صاحبه، ولا حصن يختبئ خلفه قوي. الأرض التي صنعت عليها الطبقات الاجتماعية رموزها تصير ساحة واحدة للعرض على الله.

هناك لا يتقدم الغني لأنه كان غنياً، ولا يتأخر المسكين لأنه كان مسكيناً، ولا يجد اليتيم نفسه بلا سند؛ فربه الذي أمر بإكرامه حاضر للحكم. تتقلب مواضع كثيرة: من كان في آخر الصفوف عند الناس قد يكون في مقدمة الكرامة، ومن تصدر المجالس بماله قد يقف خفيفاً من الحسنات مثقلاً بالحقوق.

الأرض بوصفها شاهداً لا جماداً

الأرض التي ستدك لم تكن خلال الحياة جماداً غائباً عما جرى عليها؛ إنها ميدان الأعمال وشاهدها. مشت عليها أقدام إلى المساجد، وأقدام إلى الظلم؛ سجدت عليها جباهه، وسُفكت فوقها دماء؛ زُرعت فيها سنابل للفقراء، وحُفرت فيها سجون للمصلحين. وفي يومها الموعد تحدث أخبارها بإذن ربها.

وقد يظن الإنسان أن المكان ينسى، لأن الجدران لا تتكلم في الدنيا، لكن الله الذي يعلم السر وأخفى لا تضيع عنده التفاصيل. الغرفة التي خلا فيها إنسان بمصيبة أو دمة، والطريق الذي سار فيه لإغاثة محتاج، والأرض التي اغتصبها، والباب الذي طرقه يتيم فرده؛ كلها مواقع في جغرافية العمل محفوظة في علم الله.

لهذا فإن دك الأرض لا يعني ضياع شهادتها، بل انتهاء وظيفتها بعد أن أدت ما أريد منها. يزول المكان وتبقى الأعمال التي وقعت فيه، كما يموت الجسد وتبقى النية والأثر. وما ظنه الإنسان لحظةً عابرةً في زاوية منسية يجدها حاضرةً في كُتاب لا يغادر صغيرةً ولا كبيرة.

حين يفقد الإنسان موضع الاختباء

في الدنيا يستطيع الإنسان أن يختبي وراء الجدران والألقاب والروايات التي يصنعها عن نفسه. قد يظهر للناس في صورة المحسن، بينما يعرف بعض الضعفاء وجهاً آخر منه. وقد يكتب تاريخه بيده، ويحذف منه ما يشينه، ويمتلك من التفوذ ما يمنع الآخرين من رواية الحقيقة.

أما حين تُدك الأرض، فلا يبقى جدار للخصوصية الكاذبة، ولا منصة يحتكر منها أحد تفسير الوقائع. تصير الأسرار في علم الله علانيةً للحساب،

ويسقط الفارق بين الوجه العام والوجه الخفي. هناك لا ينفع الإنسان أنه أقنع الناس ببراءته إذا كان الله يعلم جرمته، ولا يضره أن شوه الناس سمعته إذا كان الله يعلم صدقه.

وهذه الحقيقة تمنح الإنسان ميزاناً عظيماً في الدنيا: لا تجعل صورتك عند الناس أهم من حقيقتك عند الله. فقد تحسن الصورة وتفسد السرية، فيأتي يوم تُدك فيه مسارح العرض كلها ولا يبقى إلا ما كنت عليه حقاً. وقد يُساء فهمك، ويُرمى عليك ما ليس فيك، لكن ما دام الله يعلم حقيقتك فلا تجعل أحكام البشر إلهاً يلتهم سلامك.

ومع ذلك، لا ينبغي أن تتحول عبارة «الله يعلم» إلى حيلة يتهرب بها الإنسان من النقد الصادق. فكم من مخطئ يقول: الله يعلم نيتي، ليعفي نفسه من مراجعة الأثر الذي تركه! نعم، الله يعلم النيات، ويعلم كذلك الأفعال والحقوق والقلوب التي تأذت. وصدق النية لا يغني دائماً عن تصحيح الخطأ ورد المظلمة.

﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾: محيي يليق بجلال الله

قال تعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾. تؤمن بما أخبر الله به عن نفسه كما جاء، على الوجه اللائق بجلاله، من غير تشبيه محيي المخلوقين، ولا

تكييف، ولا تمثيل؛ فالله سبحانه **﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾**. كل ما خطر ببال الإنسان من صفات المخلوقين فالله أعظم وأجل من أن يشبهه.

إن الآية تنقلنا من ذلك المكان إلى حضور الحكم الفصل. طوال الحياة كان كثير من الناس يتصرفون كأن الله بعيد عن شؤونهم؛ يسمعون أوامره، ثم يقدمون عليها أعرافهم ومصالحهم؛ يعلون أنه حرم الظلم، ثم يؤجلون التوبة؛ يأكلون الحقوق كأن الحساب فكرة بعيدة. فإذا جاء ذلك اليوم، انكشفت الحقيقة التي كانت قائمة دائماً: الملك لله وحده، والحكم له، والأمر كله إليه.

ولم يكن الله غائباً في الدنيا، تعالى عن ذلك؛ كان بعلمه محيطاً، وبقدرته نافذاً، وتديره قائماً. لكن حجاب الغيب كان يمتحن القلوب: هل يؤمن الإنسان بما لا يرى، أم لا ينضبط إلا أمام المشهود؟ أما يوم القيامة فتنقل الحقائق من مجال الإيمان بالغيب إلى مجال العيان الذي لا مجال لإنكاره.

وهنا يظهر الفرق بين من عاش لله في الغيب ومن لم يذكره إلا بعد زوال الغيب. المؤمن كان يستحضر رقابة الله وهو لا يراه، وقيم حياته على الوعد والوعيد قبل أن يشهدهما، فصار يوم القيامة ظهوراً لما آمن به. أما الغافل فيرى فجأة ما عاش عمره يعامله كأنه احتمال يمكن تأجيله.

وفي إضافة الرب إلى المخاطب مرة أخرى **﴿رَبِّكَ﴾** ظل من الأنس وسط المهابة. ربك الذي نصر الحق في مصارع الطغاة هو الذي يأتي للفصل

والحكم، فلا تخف من ضياع العدل. إن اليوم رهيب، لكن رهبة المؤمن ليست رهبة من قاضٍ ظالم أو حقيقة مجهولة، بل مهابة الوقوف بين يدي رب عرف رحمته وفضله، وخاف عدله، ورجا عفوّه.

﴿وَالْمَلِكُ صَفًا صَفًا﴾: النظام المهيب في يوم انكشاف الفوضى

وتأتي الملائكة ﴿صَفًا صَفًا﴾. صورة من النظام الكامل، والهيبة، والانقياد لأمر الله. كانت حياة البشر مليئةً بالتنازع والفوضى وتداخل الدعاوى، أما في ذلك اليوم فكل شيء ينتظم حول الحقيقة الواحدة؛ لا صوت يعلو بغير إذن، ولا مخلوق يتقدم من تلقاء نفسه، ولا شفاعة إلا لمن أذن له الرحمن ورضي له قولاً.

وتكرار ﴿صَفًا صَفًا﴾ يصور صفوفًا وراء صفوف، لا يحيط العقل بعددها. الملائكة الذين كانوا في الدنيا يكتبون الأعمال ويحفظون بأمر الله، يحيئون في مشهد يفوق طاقة الخيال. وعندها يدرك الإنسان كم كان عالمه المحسوس صغيراً أمام ملكوت الله؛ كان يظن أن ما تراه عينه هو الوجود كله، فإذا الغيب الذي أنكره أو نسيه يحيط به من كل جهة.

وفي اصطفاة الملائكة معنى المقابلة مع اضطراب الإنسان. هم عباد مكرمون لا يعصون الله ما أمرهم، والإنسان منح الاختيار فبعثر حياته بين

الرغبات. هم في صفوف الطاعة، وهو ربما عاش خارج حدود الأمر. ولذلك يصبح المشهد سؤالاً صامتاً: أين كان صفك في الدنيا؟ أكنت في صف العدل أم الظلم؟ في صف من يكرمون اليتيم أم من يأكلون ماله؟ في صف من يطعمون المسكين أم من يمرون بجوعه بلا التفات؟

الناس في الدنيا مولعون بالاصطفاف حول الأقوياء. يزدحمون على أبواب أصحاب النفوذ، ويحرص كل واحد أن يُرى قريباً من المركز. لكن الصفوف يوم القيامة لا تقاس بقرب دنيوي من سلطان، بل بقرب القلب من الحق. ورب رجل عاش مجهولاً عند الناس، بعيداً عن الصور والمجالس، لكنه يقف يومئذ في مقام كريم، لأنه اختار صف الله حين كان هذا الاختيار مكلفاً.

سقوط الضجيج البشري

في الدنيا يملك الإنسان أن يقاطع الحقيقة بالضجيج، وأن يغطي ضعفه بكثرة الكلام. وإذا وُجّه إليه نقد بحث عن خطأ لدى ناقده، وإذا ذُكّر بمظلمة تحدث عن حسناته، وإذا دُعي إلى التوبة قال: ما زال في العمر متسع. إنه يهرب من القضية إلى ما حولها، ومن نفسه إلى الآخرين.

أما في ذلك اليوم، فلا مهرب إلى الهامش. تصطف الملائكة، وتوضع الموازين، ويعرض الكتاب، وتصبح النفس وحدها في مواجهة عملها. لا

تستطيع أن تذوب في الجماعة، ولا أن تقول: كان الناس جميعاً يفعلون ذلك، فالجميع حاضرون فرادى في المسؤولية، وإن حُشروا أئماً في الصورة.

إن المجتمع قد يمنح الذنب غطاءً نفسياً؛ حين يشيع الظلم يخف شعور الفرد بقبحه، وحين يأكل الناس حقوق النساء في الميراث يطمئن كل واحد إلى أنه يتبع العرف. لكن كثرة المشاركين لا تغير طبيعة الفعل. يوم القيامة تسقط حماية العادة، ويظهر لكل إنسان أنه كان يملك في داخله موضعاً للاختيار، وأنه مسؤول عن نصيبه من المنظومة.

﴿وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ﴾: المصير حين يتحول من خبر إلى حضور

قال تعالى: ﴿وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ﴾. كانت جهنم في الدنيا خبراً يقرؤه الإنسان، ويمكن للغافل أن يؤجل أثره أو يتعامل معه كأنه بعيد. أما في ذلك اليوم فيُجاء بها، فتدخل الحقيقة مجال الرؤية، ولا يبقى بين الإنسان وبين المصير حاجز من الزمن أو التخيل.

وجاء في الحديث الصحيح أن جهنم يؤتى بها يومئذ لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها. وهو مشهد يخلع القلب من وهمه؛ هذه النار الهائلة من خلق الله، مأمورة منقادة، ومع ذلك تحتاج في سوقها - على ما أخبر النبي ﷺ - إلى ذلك العدد الذي لا يكاد يحيط به تصور.

وفي محيى جهنم إلى ساحة العرض معنى أشد رهبة من مجرد ذهاب أهلها إليها؛ كأن المصير الذي ظلوا يفرون من التفكير فيه صار هو الذي يأتيهم. كان الإنسان يتبعد عن ذكر الموت، ويغير المجلس إذا ذُكرت الآخرة، ويغرق نفسه في المشاغل كي لا يسمع أسئلة النهاية، لكن الحقائق لا تزول لأننا لا نفكر فيها. قد تنجح في إبعاد الفكرة عن وعيك، لكنك لا تستطيع إبعاد موعدها عن قدرك.

وكثير مما يخشاه الإنسان في الدنيا يستطيع تجنبه بتغيير الطريق أو المكان، أما الآخرة فليست حادثة تقع في مكان يمكن الهرب منه؛ إنها النهاية التي يسير إليها العمر نفسه. كل يوم يمر لا يبعدنا عنها، بل يقربنا منها، وإن بدا لنا أنه يمنحنا مزيداً من الدنيا.

والقرآن لا يعرض جهنم لمجرد صناعة الخوف المجرد، بل ليحمي الإنسان من الطريق المؤدي إليها. الخوف في الوحي رحمة حين يمنع اليد من ظلم، واللسان من أذى، والقلب من استكبار. كما أن إنذار الطبيب بمخطر المرض ليس كراهيةً للمريض، بل محاولة لإنقاذه، فإن الوعيد الإلهي دعوة إلى العودة قبل أن تنتهي إمكانية العودة.

لكن الإنسان قد يعتاد سماع الوعيد حتى تفقد الألفاظ حرارتها في قلبه. يقرأ جهنم كما يقرأ اسم مكان بعيد، ثم يواصل حياته دون أن يتغير شيء. ولهذا

يحول القرآن الغيب إلى مشهد متحرك: دُكُّ للأرض، وصفوف من الملائكة، وجهنم يؤتى بها، وإنسان يستيقظ متأخراً. إنه لا يريد من القارئ أن يعرف فقط، بل أن يرى بقلبه حتى تتحول المعرفة إلى موقف.

﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ﴾: الذّاكرة التي تستيقظ بعد فوات الاختيار

في تلك اللحظة: ﴿يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ﴾. يتذكر الآيات التي مر بها ولم يقف، والنصائح التي ضاق بها، والحقوق التي سوف ردها، والفرص التي ظنها تتكرر إلى ما لا نهاية. تتجمع حياته أمامه لا كما كان يرويه لنفسه، بل كما كانت في ميزان الحق.

ولفظ ﴿الْإِنْسَانُ﴾ يعيدنا إلى الإنسان المذكور في قوله: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ﴾. ذلك الذي أخطأ قراءة العطاء والمنع، وأحب المال حباً جماً، يعود الآن فيتذكر. لكنه لم يعد صاحب المال ولا صاحب المكنة؛ صار إنساناً مجرداً من كل الإضافات، يحمل وعياً متأخراً بما صنع.

وليس التذكر يومئذ اكتساباً للمعلومة لم تُعرض عليه، بل انكشاف لقيمة ما كان يعرفه أو يستطيع معرفته. ربما كان يعلم أن الظلم حرام، لكنه أبعد هذه المعرفة عن لحظة المنفعة؛ وكان يعلم أن الموت حق، لكنه عاش كأنه

مستثنى؛ وكان يسمع أن مال اليتيم نار، لكن المال حين حضر غطى على صوت الآية.

إن للإنسان قدرةً عجيبةً على توزيع وعيه بحسب مصالحه. يتذكر الدين حين يطالبه الآخرون بحق، وينساه حين يكون الحق عليهم؛ يستحضر الصبر ليطالب المظلوم به، ولا يستحضر العدل ليطالب الظالم. ويوم القيامة ينتهي هذا الانتقاء؛ تأتي الذاكرة كاملة، فلا يستطيع أن يحذف منها ما يدينه.

وقد يتذكر الإنسان كلمةً قالها في ثانية ثم نسيها، لكنها بقيت سنوات في قلب من سمعها. يتذكر وجه يتيم نظر إليه باستخفاف، ومسكيناً أغلق دونه الباب، وعاملاً أخر أجره وهو يعلم حاجته، وقريباً أكل من ميراثه. ما كان صغيراً في وعي القوي كان كبيراً في حياة الضعيف، والله لا يقيس الأمور بمقدار اهتمام الظالم بها.

الذاكرة الأخلاقية التي نخدرها

ليس النسيان دائماً عجزاً طبيعياً؛ قد يكون أحياناً قراراً نفسياً. الإنسان ينسى ما يزج صورته عن نفسه. يعيد رواية الموقف حتى يصبح هو الضحية، ويضيف الأعذار، ويحذف ألم الآخرين، ثم يصدق الرواية التي صنعها. وكلما كررها، ابتعد عن لحظة الاعتراف.

والتوبة في الدنيا هي شجاعة استعادة الذاكرة قبل أن تُستعاد قسراً في الآخرة. أن يجلس الإنسان مع نفسه دون محامٍ داخلي، وينظر إلى أفعاله من جهة من تأذوا بها، لا من جهة نواياه وحدها. يسأل: ماذا صنعت؟ لا: كيف أبرر ما صنعت؟ ماذا بقي علي من حقوق؟ ومن يحتاج إلى اعتذار أو رد مظلمة؟

الاعتراف لا يغير الماضي، لكنه يمنع الماضي من تسميم المستقبل، ويفتح باب الإصلاح. أما الإنكار فيحفظ الصورة الظاهرية ويهدم الإنسان من داخله؛ لأنه يضطر في كل مرة إلى بناء كذبة جديدة فوق القديمة.

إن الله فتح باب التوبة لأن الإنسان ليس محكوماً بأن يبقى أسير أسوأ أفعاله. يستطيع أن يتذكر الآن، ويبيكي الآن، ويرد الحقوق الآن، حتى إذا جاء يوم التذكر الكبير لم يكن ماضيه خصماً كاملاً؛ يجد توبةً مَحْتً، وحسنةً تداركت، ودمعةً صدقت.

﴿وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾: المعرفة التي فقدت قدرتها على الإنقاذ

يتذكر الإنسان، لكن القرآن يقول: ﴿وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾. أي من أين له أن تنفعه الذكرى وقد انقضى زمن العمل؟ ليست المشكلة في غياب الوعي،

بل في تأخره. لقد أصبحت الحقيقة واضحة، لكن الوضوح جاء بعد انتهاء الامتحان.

هناك فرق بين معرفة تدفع إلى الاختيار، ومعرفة يفرضها انكشاف الواقع. الإيمان في الدنيا له قيمته لأنه يقع في مجال الغيب، ولأن الإنسان يستطيع أن يطيع أو يعصي. أما حين يرى جهنم، فلن يكون تصديقه بها اختياراً أخلاقياً، كما لا يعد تصديق الإنسان بالشمس فضلاً بعد أن تملأ عينيه.

ولهذا فإن الوقت جزء من قيمة العمل. الاعتذار الذي يأتي بعد أن لا يعود لصاحبه أثر قد يكون اعترافاً، لكنه لا يساوي الاعتذار حين كان يمكنه إصلاح العلاقة. والصدقة بعد الموت لا يملك الإنسان فعلها بنفسه، بينما كان المال في يده. والتوبة عند المعاناة ليست كتوبة من رجع وهو قادر على الاستمرار في الذنب.

إن الشيطان لا يحتاج دائماً إلى إقناع الإنسان برفض الحق نهائياً؛ يكفي أن يقنعه بالتأجيل. يقول له: تب غداً، ورد الحق بعد أن تتحسن ظروفك، وصل رحمك حين يهدأ غضبك، وابدأ الطاعة عندما تتفرغ. وهكذا لا يقول الإنسان «لا» لله صراحةً، بل يقول «ليس الآن»، حتى يأتي وقت لا يبقى فيه «الآن» صالحاً للعمل.

والعمر لا يُفقد دفعةً واحدة، بل يتسرب في التأجيل. يوم وراء يوم، وموسم وراء موسم، والإنسان ينتظر نسخةً أكثر استعداداً من نفسه، دون أن يدرك أن الاستعداد يُصنع بالفعل ولا يسبقه دائماً. من انتظر صفاءً كاملاً ليبدأ ربما لم يبدأ؛ فالطريق هو الذي يظهر القدم من غبار التردد.

لحظة لا ينفع فيها الندم

﴿وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾ ليست إغلاقاً لباب الرحمة في الدنيا، بل دعوة إلى دخوله قبل أن يُغلق. ما دام الإنسان حيّاً، فكل تذكر يمكن أن يصير توبة، وكل ندم يستطيع أن يتحول إلى إصلاح. تستطيع أن تعود اليوم إلى حق أكلته، أو قلب كسرت، أو فريضة هجرتها.

إن رحمة الله لا تضيق بكثرة الذنوب لمن صدق في الرجوع، لكن صدق الرجوع يتطلب ألا نجعل الرحمة حجةً على الاستمرار. من عرف أن الله غفور ثم أصر متعمداً كأنه يختبر المغفرة، لم يفهم مقام العبودية. الرجاء الذي لا يثمر توبة أمنية، والخوف الذي لا يفتح باب الرجاء قنوط؛ والمؤمن يسير إلى الله بقلب بينهما.

وما دام الإنسان يقرأ هذه الآية الآن، فالسؤال لم يُحسم بعد. ما زالت ﴿أَنْتَى لَهُ الدِّكْرَى﴾ تحذيراً لا وصفاً نهائياً لحاله. يستطيع أن يجعل التذكر حاضراً نافعاً بدل أن يكون غداً حسرةً عاطلة.

﴿بَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾: الاكتشاف المتأخر لمعنى الحياة

هذه من أكثر آيات السورة إيلاً وإيقاظاً: ﴿يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾. لم يقل: يا ليتني قدمت في حياتي، بل قال: ﴿لِحَيَاتِي﴾. كأنه يكتشف في الآخرة أن الحياة الحقيقية، الكاملة، الباقية، هي ما بعد الموت، وأن الدنيا لم تكن إلا زمناً للتقديم إليها.

كان يسمي الدنيا حياته كلها، ويعامل الآخرة كنحس بعيد، فإذا انكشف الغطاء تبدلت الأسماء: ما ظنه الحياة كان مقدمة قصيرة، وما أهمله هو الحياة التي لا تنتهي. كان يبني للمرحلة ويهمل المصير، ويزن الممر كأنه مقر، حتى وصل إلى الدار بلا زاد.

ولا يعني هذا أن الدنيا ليست حياة في اللغة والواقع، بل إنها حياة ناقصة عابرة إذا قيس بالآخرة. فيها الموت داخل كل شيء: يذبل الجمال، وتفارق الأرواح، وتنقص الذات كلما تكررت، وتظل السعادة مهددة بالفقد. أما

حياة الآخرة فهي الحياة الكاملة التي لا تنقطع، ولهذا قال تعالى في موضع آخر: ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾، أي الحياة الحقيقية التامة.

إن الإنسان في الدنيا يقدم لمستقبله الأرضي باستمرار: يدرس لوظيفة لم تأت، ويدخر لشيخوخة لم يصلها، ويبني لأبناء قد يكبرون بعده. وهذا من الحكمة، لكنه قد يستغرب أن يقدم لآخرة يعلم أنها آتية. يؤمن بالتقاعد فيستعد له عقوداً، ويؤمن بالموت ولا يمنع من التخطيط إلا لحظات عابرة.

والتقديم للحياة ليس هجر الدنيا، بل تحويل الدنيا نفسها إلى زاد. عملك إذا أحسنت فيه وأديت الحقوق تقديم، ومالك إذا اكتسبته من حلال وأنفقت حقه تقديم، وجبك لأهلك إذا صار رحمةً ومسؤولية تقديم. ليس طريق الآخرة خارج الحياة اليومية؛ إنه يمر من داخل السوق والبيت والكلمة والقرار.

إن كل لحظة تحمل قابلية أن تُنقل إلى الخلود. كلمة طيبة ربما تنتهي أصواتها في ثوان، لكنها تبقى في ميزان الله؛ وصدقة تُستهلك مادتها، لكن أجرها لا يُستهلك؛ وعلم ينفع الناس بعد موت صاحبه يمتد أثره. هكذا يمنح الإيمان الإنسان قدرةً على إنقاذ الفاني من فناءه: يودع العمل الزائل في خزائن البقاء بالنية الصالحة والوجهة الصحيحة.

ما الذي كان ينبغي أن يقدمه؟

تأتي الحسرة عامة: ﴿قَدَّمْتُ﴾، فتشمل كل خير فاته. كان يستطيع أن يقدم من ماله بدل أن يحبه حباً جماً، ومن طعامه بدل أن يترك المسكين، ومن حنانه بدل أن يهمل اليتيم، ومن عدله بدل أن يأكل الميراث. كل الآيات السابقة تتحول الآن إلى تفاصيل داخل ندمه.

يا ليتني أكرمت اليتيم حين كان باب الكرامة مفتوحاً، يا ليتني حاضضت على طعام المسكين بدل أن أبرر جوعه. يا ليتني رددت الحقوق قبل أن تصير خصومات يوم الحساب. يا ليتني فهمت أن ما أبقيته في خزائني تركته للورثة، وما قدمته لله هو الذي بقي لي.

وقد يندم كذلك على الخير الذي فعله بلا إخلاص، وعلى العمر الذي قضاه في صناعة صورة لا حقيقة لها. ربما ملأ الناس إعجاباً به، ثم جاء إلى الله خالي اليدين؛ لأن همه كان أن يراه الخلق. والعمل الذي لا تتجه روحه إلى الله قد يبقى له أثر دنيوي، لكنه لا يحل صاحبه إلى مقام القبول الذي توهمه.

والآية لا تقول: يا ليتني تمتعت أكثر، أو جمعت أكثر، أو انتصرت في خصوماتي. كل ما كان يشغل قلبه في الدنيا يسقط من قائمة الندم. عند رؤية المصير يعرف أن المشكلة لم تكن في قلة ما أخذ من العالم، بل في قلة ما قدم.

كم من أشياء تقلقنا اليوم لن يكون لها وزن هناك، وكم من أعمال صغيرة نهملها ستكون موضوع أمانة كبرى! ربما نستهلك أياماً في متابعة نظرة شخص إلينا، أو في خصومة على تفصيل، ثم نكتشف متأخرين أن الحياة كانت أوسع وأنبل من ذلك. من تذكر ﴿لِحَيَاتِي﴾ أعاد توزيع اهتمامه، لم يعد يمنح العابر من قلبه أكثر مما يستحق، ولم يضح بالباقي من أجل لحظة زائلة.

التقديم لا التخزين

اختار القرآن فعل ﴿قَدَّمْتُ﴾، وفيه حركة إلى الأمام. العمل الصالح يسبق صاحبه إلى الآخرة كأنه رسول منه، يهيئ له موضعاً قبل وصوله. أما المال الذي يخزنه في الدنيا فسيبقى وراءه. والمفارقة أن ما يخرج الإنسان من يده لله هو الذي يجده أمامه، وما يحتفظ به لنفسه هو الذي يفارقه.

الإنسان في حساب الدنيا يعد ما بقي في يده مكسباً، وما أنفقه نقصاً؛ أما ميزان الآخرة فيعيد تعريف الربح والخسارة. المنفق لم يفقد ماله، بل قدمه إلى حساب لا يضيع، والبخيل لم يحفظ ماله لنفسه، بل حفظه لغيره واحتفظ بتبعته.

وليست الأعمال الصالحة شحنةً مادية تُرسل إلى الغيب بلا أثر حاضر، إن التقديم للآخرة يصلح الدنيا أيضاً. حين تكرم اليتيم، لا تبني آخرتك وحدها، بل

تبني إنساناً في المجتمع. وحين تطعم المسكين، تحفظ حياته وكرامته. وحين ترد الميراث، تحمي الأسرة من الظلم. وهكذا لا تتعارض عمارة الآخرة مع عمارة الأرض، بل تتحدان في العمل الذي يرضي الله وينفع خلقه.

الحسرة على الحياة التي لم تُعش حقاً

قد يحمل قوله: ﴿قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ حسرةً أخرى: حسرة الإنسان الذي اكتشف أنه لم يعيش دنياه على حقيقتها أيضاً. لقد قضى عمره يجمع وسائل العيش ولم يجد وقتاً للعيش بمعناه؛ بنى بيتاً ولم يبن فيه مودة، وجمع لأبنائه مالا ولم يمنحهم حضوره، وحافظ على صورته وخسر نفسه.

كان يظن أنه يؤجل الحياة إلى أن يكتمل شيء ما: إذا حصلت على المال سأطمئن، وإذا بلغت المنصب سأستريح، وإذا انتهت هذه المشكلة سأبدأ. لكنه كلما وصل إلى غاية ظهرت أخرى، وظلت الحياة مؤجلة حتى انتهى زمنها. وحين وقف عند المصير، فهم أن الحياة لم تكن في آخر الطريق، بل كانت في الطريقة التي يمشي بها.

الإيمان يعيد الإنسان إلى الحاضر دون أن يحبس فيه. يجعله يعيش اللحظة بوصفها أمانةً ونافذةً إلى الأبد؛ يحب أهله الآن، ويعتذر الآن، ويصلي الآن،

ويكتب الخير الآن. لا ينتظر حياةً مثالية كي يكون إنساناً صالحاً، بل يجعل صلاحه ممكناً داخل النقص.

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ﴾: العذاب الذي لا يشبه عذاب الدنيا

قال تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ﴾. أي لا يعذب مثل عذاب الله أحد، فعذابه يومئذ لا يبلغه عذاب مخلوق، وهو جزاء شديد لمن استحقه بعد قيام الحجة. وقرئت الآية قراءة متواترة أخرى بالبناء للمفعول: «لا يُعَذَّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ، ولا يُوثَقُ وثاقه أحد»، ويكون المعنى: لا يعذب أحد مثل عذاب ذلك الإنسان، ولا يوثق أحد مثل وثاقه. وكلتا القراءتين تزيدان المشهد رهبةً، وتؤكدان فريدة ما يقع يومئذ.

وقد عرضت السورة من قبل طغاة عذبوا الناس: فرعون ذو الأوتاد، ومن قبله عاد وثمود. كان لهم سياطهم وسجونهم وأدوات إذلالهم، لكن عذاب البشر مهما قسا محدود بقدرتهم وزمنهم، أما عذاب الله فلا يشبهه عذاب، ولا يخرج عن عدله أحد.

وهنا يجب أن يستقر في القلب أصل عظيم: الله لا يظلم مثقال ذرة. فعذابه ليس بطشاً عشوائياً، ولا انفعالاً مجرداً، تعالى الله عن ذلك، بل جزاء حق قائم على العلم التام والعدل الكامل. والإنسان قد يعاقب بناء على ظن أو غضب أو

مصلحة، أما الله فيعلم السرائر والظروف والحجج والفرص، فلا يُسَوَّى عنده بين من أصر مستكبراً ومن زل ثم تاب، ولا بين من عرف الحق فجحدته ومن التبس عليه الأمر.

إن شدة العذاب تكشف فداحة الجريمة التي كان الإنسان يستهين بها. نحن نرى الظلم من جهة الفاعل لحظةً عابرة، لكن الله يراه بكل آثاره الممتدة في الضحايا والأجيال. كلمة الحاكم قد تهجر بسببها عائلات، وقرار جائر قد يحوّج به آلاف، وسرقة حق قد تغير مستقبل يتيم. لذلك لا ينبغي أن نقيس الجريمة بمقدار الجهد الذي بذله الظالم فيها، بل بمقدار ما أفسدته في الحياة.

وقد يبدو للطاغية أن جرائمه أوراق وقعها في دقائق، لكنه سيجد آثار التوقيع كلها حاضرة. ومن هنا كان العذاب شديداً، لأن الحساب يجمع ما بعثته القوة في حيوات لا تحصيها عين صاحبها.

بين الخوف والرجاء

حين يقرأ المؤمن هذه الآيات لا ينبغي أن تقوده إلى القنوط، كما لا ينبغي أن يمر بها آمناً من مكر الله. إن القرآن يبني القلب بين الخوف والرجاء؛ يخوفه حتى لا يطغى، ويرجّيه حتى لا ييأس.

والذي يخشاه المؤمن ليس عدل الله، بل تقصيره هو؛ يعلم أن الله أرحم به من كل راحم، لكنه يخاف أن يلقي رحمته مصرًا على مظالم العباد. فالذنوب التي بين العبد وربّه باب التوبة فيها مفتوح، وحقوق الناس تحتاج مع التوبة إلى رد أو استحلال بحسب القدرة والحال.

وربما كان خوف الآخرة من أعظم ما يحيي البشر من عذاب بعضهم بعضًا. من تذكر عذاب الله كفّ سوطه عن الضعيف، ومن خاف الوقوف بين يديه لم يجعل منصبه حصانة للظلم. أما الذي لا يرى وراء القوة حسابًا، فقد يطلق يده ما دام قادرًا على إسكات القوانين.

إن مجتمعًا يستحضر الآخرة لا يعني مجتمعًا يعيش مذعورًا، بل مجتمعًا يملك مرجعًا أخلاقيًا أعلى من إرادة الأقوياء. يعرف الحاكم أنه محكوم، والغني أنه مؤتمن، والقاضي أنه سيُقضى عليه، وكل صاحب سلطة أن فوقه سلطة الحق.

﴿وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ﴾: القيد الأخير لمن عاش أسير شهوته

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ﴾. الوثاق هو القيد الشديد المحكم. والإنسان الذي كان يظن نفسه حرًا لأنه يفعل ما يشاء يجد نفسه في قيد لا

يستطيع الفكاك منه. وهنا تظهر مفارقة الحرية الزائفة: من رفض حدود الله في الدنيا لم يكن حراً حقاً، بل كان أسير شهواته، ثم ظهر أسرته كاملاً في الآخرة. الحرية ليست أن تفعل كل ما تقدر عليه؛ فالطاغية يفعل ما يريد، لكنه عبد لخوفه من فقد السلطة. والجشع يجمع بلا حد، لكنه عبد لهلع النقص. وصاحب الشهوة يلاحق لذاته، لكنه يفقد القدرة على قول «لا» لنفسه. إن أعمق الحرية هي أن تملك إرادتك حين تدعوك النفس إلى ما لا يرضي الله. ومن لم يقيد شهوته بالحق، قيدته الشهوة من الداخل قبل أن يرى الوثاق في الآخرة. المال الذي أحبه حباً جماً صار قيداً، يخاف عليه، ويخاصم لأجله، ويبيع راحته ليزيده. وصورة الناس قيد؛ يتكلف لإرضائهم ما يهدم صدقه. والحد قد قيد؛ يحمل خصمه في قلبه أينما ذهب، فيظن أنه يعاقبه بينما يعاقب نفسه.

أما الطاعة فهي حدود تحرر الإنسان من الحدود الأشد قسوة. حين يمنعه الشرع من الحرام، لا يصادر إنسانيته، بل يحميها من أن تتحول إلى عبد للرغبة. وحين يأمره بالإتفاق، يحرره من عبودية المال. وحين يأمره بالعفو أو العدل، يخرج منه من سجن الانتقام.

وهكذا يكون المؤمن مقيداً في الظاهر بأمر الله، لكنه حر في الداخل؛ بينما يبدو الغافل طليقاً في رغباته، وهو مربوط إليها بخيوط لا يراها. يوم

القيامة تجسد الحقائق الباطنة: ينكشف الوثاق الذي كان الإنسان يصنع
حلقاته باختياراته.

أوتاد فرعون ووثاق الآخرة

ذكرت السورة فرعون ذا الأوتاد، ثم تختتم مشهد العذاب بالوثاق. وهذه
مقابلة لها جلالها: الذي أوثق الناس وعذبهم يحد الوثاق، والذي ظن أن
أوتاده تثبت سلطانه يكتشف أن لا شيء يثبت أمام حكم الله.

كل قيد وضعه ظالم في يد بريء له تاريخ عند الله، وكل باب سجين أغلق
بغير حق سيفتح ملفه يوم الحساب. قد تموت الضحية قبل أن ترى عدل
الأرض، لكن موتها لا يغلق القضية. بل تنتقل إلى محكمة لا يحتاج فيها
المظلوم إلى شاهد خارج علم الله.

وهذا لا يعني أن تتشوف لتعذيب الناس أو تستمتع بتخيل مصائبهم؛
فالؤمن يدعو بالهداية، ويحب التوبة للخلق، ولا يقطع لمعين بمصير أخروي بلا
دليل. لكنه يوقن بأن العدالة ليست أمنية، وأن من مات مصرّاً على طغيانه
لن يفلت لأن محاكم الدنيا عجزت عنه.

كما ينبغي للمظلوم أن يحذر من أن يحوله الألم إلى نسخة من ظالمه. قد يظل
جسده خارج السجن، لكن الحقد يوثقه سنوات. العفو عند القدرة مقام

عظيم حين لا يضيع به حق عام ولا يشجع معتدياً، أما العدالة فليست انتقاماً أعمى؛ إنها رد للحق ومنع لتكرار الظلم. ومن ترك أمر قلبه لله تحرر من أن يجعل الطاغية يسكن داخله بعد أن خرج من حياته.

المشهد الذي يعيد كتابة القيم

عند ذلك الأرض ومجيء الملائكة وجهنم، يعاد تعريف كل شيء. يظهر الغني فقيراً إلى حسنة، والقوي عاجزاً عن دفع العذاب، والمشهور وحيداً بلا جمهوره، والمسكين الذي صبر كريماً بما قدم. لا قيمة هناك للعملات والألقاب إلا بقدر ما تحولت في الدنيا إلى طاعة.

الإنسان الذي كان يقول: ﴿رَبِّي أَكْرَمَن﴾ بسبب المال يكتشف أن الكرامة لم تكن في المال، بل في الشكر. والذي قال: ﴿رَبِّي أَهَانَن﴾ بسبب الفقر يكتشف أن الفقر لم يسلبه شيئاً من منزلته إذا لقي الله مؤمناً. واليتيم الذي لم يكرمواه يجد أن الله لم ينسه، والمسكين الذي لم يطعموه يرى جوعه شاهداً، ومن أكل ميراثه يجد الحق كاملاً.

إن القيامة ليست فقط يوم جزاء، بل يوم كشف؛ تسقط فيه الأسماء الكاذبة. ما سميناه نجاحاً قد ينكشف فشلاً، وما حسبناه حرماناً قد يظهر نجاة، وما رأيناه ضعفاً قد يكون قوة عند الله. ومن هنا كانت الآخرة ضرورة

لا اكتمال المعرفة، لا الحساب وحده؛ ففيها نرى الأشياء كما هي بعد أن حجبتها الزينة والمصلحة.

لكن المشهد، على شدته، ليس خاتمة السورة. ففي اللحظة التي يبلغ فيها الخوف ذروته، ستفتح جهة أخرى من المصير. بعد النفس التي تقول: ﴿يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾، تظهر نفس لم تنتظر ذلك اليوم لتتذكر؛ تذكرت في الدنيا، وقدمت لحياتها، وحملت يقين الفجر في قلبها، فلم تحدها النعمة ولم تكسرهما المحنة.

ستسمع هذه النفس نداءً لا يشبه الصيحة ولا صوت العذاب: ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾. نداء تكريم بعد أن أنكرت السورة موازين الكرامة الكاذبة، ونداء قرب بعد صفوف المهابة، ونداء عودة بعد رحلة العمر. عنده نكتشف أن السورة لم تبدأ بالفجر لتحديثنا عن نور السماء وحده، بل لتقودنا إلى الفجر الذي استقر في النفس حتى صارت مطمئنة.

الفصل السابع

﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾: حين تنتهي رحلة الخوف عند باب الرضا

﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ ارجعي إلى ربِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً ﴿فَادْخُلِي﴾
في عِبَادِي ﴿وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾

بعد ذلك الأرض، واصطفاف الملائكة، والإتيان بجهنم، وحسرة الإنسان الذي يتمنى لو قدم لحياته، يفتح في ختام السورة مشهد آخر لا يشبه ما قبله في النبوة، وإن كان ثمرة لكل ما سبقه في المعنى. تبدأ الصيحات، وتخسر رهبة المشهد عن نداء حميم يتوجه إلى نفس بعينها: ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾.

إنها مفاجأة الرحمة في نهاية سورة امتلأت بمصارع الطغاة، وسوط العذاب، والمرصاد، ودك الأرض، ووثاق الآخرة. وليس الانتقال انقطاعاً عن سياق السورة، بل هو الوجه الآخر للعدالة نفسها؛ فالعدل الذي يأخذ الطغاة هو الذي يؤمن المؤمنين، والرب الذي كان بالمرصاد للظالم كان في الوقت نفسه يحفظ دمة المظلوم، ويحصى صبره، ويهيئ له هذا النداء.

ليس يوم القيامة يوم خوف على الجميع بالدرجة نفسها، وإن كان يوماً عظيماً تذهل له القلوب؛ فهو للمجرم يوم انكشاف وهزيمة، وللمؤمن الصادق يوم وفاء الوعد. كان هذا المؤمن يخاف الله في الدنيا حين أمن الغافلون،

فيؤمّنه الله في الآخرة حين يستولي الخوف على من نسوه. وكان يحاسب نفسه قبل الحساب، فيخف عليه الحساب؛ وكان يقيد شهوته بأمر الله، فيُنَجّي من الوثاق.

وهكذا تمتاز النفوس في اليوم الذي تتشابه فيه الأجساد في الخروج من القبور. نفس تقول: ﴿يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾، ونفس يقال لها: ﴿ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ﴾. الأولى اكتشفت الحياة بعد فوات زمن التقديم، والثانية قدمت لها حين كان الطريق مفتوحاً. الأولى تذكرت حين لم تعد الذكرى تنفع، والثانية حملت الذكرى في قلبها حتى تحولت طمأنينةً وعملاً.

لماذا خوطبت النفس؟

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ﴾، ولم يقل: يا أيها الإنسان المطمئن. فالخطاب يتوجه إلى أعمق موضع في الكائن البشري؛ إلى ذاته التي عاشت الخوف والرجاء، وحملت الإيمان، وجاهدت الشهوة، واختبرت الفقد، وظلت تتجه إلى الله.

الجسد كان أداة رحلتها في الأرض، لكنه لم يكن حقيقتها كلها. تغيرت ملامحه، وضعفت قوته، وربما نال منه المرض، أما النفس التي تعلق بالله فقد كانت تنضج وراء هذه التحولات. كل سبغة تركت فيها أثراً، وكل

صبر صقلها، وكل توبة غسلت موضعاً من عتمتها، حتى صارت أهلاً لهذا الاسم: المطمئنة.

والإنسان في الدنيا يسمع كثيراً من النداءات التي تتجه إلى ظاهره: نداء المهنة، والرتبة، والاسم، والمكانة الاجتماعية. يُعرّف بما يعمل، أو بما يملك، أو بما ينتمي إليه. أما هنا فتسقط التعريفات كلها، ويُنادى بأصدق صفاته الباطنة. لا يقال: يا صاحب المال، ولا يا صاحب السلطان، ولا يا من عرفك الناس، بل: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾.

وهذا وحده يعيد ترتيب سؤال الهوية: ليس أهم ما ينبغي أن أسأل عنه كيف يراني الناس، بل أي نفس أبني في داخلي؟ قد تتغير مهنتي، وينقص مالي، ويغيب اسمي، لكن ما صنعتته في نفسي سيصحبني إلى الله. إن الإنسان يقضي جزءاً كبيراً من عمره في تحسين صورته الخارجية، بينما الحقيقة التي ستُخاطب عند النهاية هي نفسه.

﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾: نداء التكريم بعد طول المجاهدة

في النداء قرب وتخصيص وشريف. لم يأت الخبر بارداً: النفس المطمئنة ترجع إلى ربها، بل جاء خطاباً مباشراً: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾. كأن

الرحلة كلها انتهت إلى لحظة يسمع فيها العبد خطاب الكرامة الذي عاش
ينتظره دون أن يراه.

كم سمعت هذه النفس في الدنيا أصواتاً أقلقته! صوت الخوف من
المستقبل، وصوت الناس حين يلومونها على ثباتها، وصوت الشهوة وهي تعدّها
بلذة عاجلة، وصوت الحزن وهو يوحي بأن الفقد لن ينتهي. قاومت كل هذه
الأصوات بصوت الوحي، حتى جاء اليوم الذي نحمدت فيه ضوضاء العالم،
وسمعت النداء الذي يحو تعب الطريق.

وقد عاشت النفس المؤمنة في الدنيا على وعد لا تراه. كانت تصلي ولا
ترى الجنة، وتترك الحرام ولا ترى فوراً أثر الترك، وتصبر على الظلم وقد لا
تشهد سقوط الظالم. وربما مر بها وقت شعرت فيه أن خطواتها الصغيرة تضع
داخل عالم يصفق للقوة والمال. لكن الله كان يحصي؛ وما ظنته لحظات
منسية كان يبني لها هذا المقام.

إن أعظم ما يحتاجه السائر إلى الله أن يوقن أن أعماله الخفية ليست
ضائعة. ركعتان في جوف الليل لا يعلم بهما أحد، وصدقة خرجت في ستر،
وغيظ كُظم مع القدرة على الانتقام، وكلمة شر حبسها اللسان؛ هذه
التفاصيل قد لا تصنع حول صاحبها شهرة، لكنها تصنع نفسه المطمئنة.

ما الطمأنينة؟

الطمأنينة سكون القلب إلى الله بعد اضطراب، وثباته على الحق بعد تردد، واستقراره في كنف الإيمان فلا تقتلع جذوره تقلبات الأحوال. وليست الطمأنينة جموداً عاطفياً، ولا غياباً كاملاً للحن وال خوف؛ فالأنبياء حزنوا وخافوا وتألّموا، وهم أكمل الناس إيماناً. إنها أن تبقى النفس موصولةً بالله وهي تعبر هذه المشاعر، فلا يحول الحزن بينها وبين الرجاء، ولا يدفعها الخوف إلى سوء الظن بربها.

النفس المطمئنة قد تبكي، لكنها لا تيأس، وقد تضطرب للحظة، لكنها تعرف طريق العودة؛ وقد تتألم من الفقد، لكنها لا تفقد المعنى. ليست صخرةً لا تشعر، بل قلباً يشعر بعمق دون أن تغرقه مشاعره.

وطمأننتها ليست نابعةً من خلوص حياتها من المصائب، بل من معرفتها بمن يدبر المصائب والمواهب. قد تكون الظروف من حولها شديدة الاضطراب، ومع ذلك تحمل في عمقها نقطة ثابتة: الله لا يضيعني، والله أعلم بي، والله أرحم من أن يجعل ألمي عبثاً.

مثل سفينة تعلو بها الأمواج وتهبط، لكن مراساتها في عمق لا تبلغه العاصفة. سطح النفس يتحرك بما يمر عليها من الحوادث، أما أصلها ف مربوط

باليقين. ولو كانت الطمأنينة مشروطة بأن تستقيم الظروف كلها، لما اطمأن أحد؛ لأن الدنيا لم تُخلق لتمتع استقراراً كاملاً.

الطمأنينة ليست امتلاك الأجوبة كلها

قد يظن الإنسان أنه لن يطمئن حتى يفهم كل ما وقع له، وحتى يعرف لماذا أخذ منه هذا، وتأخر عنه ذاك، وانكسرت في طريقه تلك الأمنية. لكن بعض أجوبة القدر لا تُكشف كاملةً في الدنيا. وإذا علّق سكينته على فهم كل شيء، بقي قلبه مؤجلاً إلى موعد قد لا يأتي هنا.

النفوس المطمئنة لا تملك تفسيراً تفصيلياً لكل وجع، لكنها تملك معرفةً بمن بيده التفسير. تقول: لا أعلم الحكمة كلها، لكنني أعلم أن ربي حكيم؛ لا أرى نهاية الطريق، لكنني أعرف من يقودني فيه. وهذا ليس إلغاءً للعقل، بل اعتراف بحدوده بعد أن يبذل وسعه.

إن الطفل يهدأ أحياناً في يد أمه دون أن يفهم الطريق، لأن معرفته بها تغنيه لحظتها عن معرفة التفاصيل. والله المثل الأعلى؛ فالؤمن يسكن إلى ربه لا لأن الأحداث كلها موافقة لرغبته، بل لأنه عرف من رحمته وحكمته ما يجعله يثق فيما خفي عنه.

وليس كل سؤال اعتراضاً؛ قد يسأل المؤمن طلباً للفهم، ويبحث عن الحكمة، ويشكو ألمه إلى الله. لكن الفرق بين السؤالين في القلب: سؤال يفتح بابه نحو الله، وسؤال يجعل الجاهل بالحكمة حجةً على إنكار الحكمة. النفس المطمئنة تسأل وهي داخل العبودية، لا خارجها.

الطمأنينة ثمرة التوحيد

لا تطمئن النفس حقاً ما دامت موزعةً بين آلهة كثيرة. إذا كان إلهها المال، اضطربت عند نقصه؛ وإذا كان إلهها إعجاب الناس، تغيرت كلما تغيرت نظراتهم؛ وإذا كان إلهها القوة، عاشت مذعورةً من الضعف. كل معبود سوى الله يحمل في ذاته سبب زواله، ومن علق قلبه بزائل حمل خوف الفقد منذ لحظة التعلق.

أما التوحيد فيجمع شتات النفس. تكون وجهتها واحدة، ومرجعها واحداً، ومعيارها واحداً. لا يعني ذلك أن رغباتها تختفي، بل إنها تنتظم تحت رضا الله. تحب المال، لكن لا تقدمه على الحق؛ تحب الناس، لكن لا تعصي الله كي تحتفظ بهم؛ تحب الحياة، لكنها لا تتبع آخرتها خوفاً من الموت.

وكلما نقصت الأرباب الوهمية في القلب، زادت الطمأنينة. فالذي يسعى لإرضاء الجميع يعيش ممزقاً؛ رضا هذا يغضب ذاك، وتوقعات الناس لا نهاية

لها. أما من جعل مرضاة الله قبلته، فقد تحرر من أن يصنع لكل مجلس وجهًا. يصبح واحدًا في سره وعلايته، وهذه الوحدة الداخلية من أوسع أبواب السلام.

إن النفاق يرهق النفس لأنه يجبرها على إدارة نسخ متعددة من ذاتها. تخشى انكشاف المسافة بين ما تظهر وما تبطن، وتحتاج دائماً إلى كذبة تغطي كذبة سابقة. أما الصدق فيريحها؛ قد يكلفها في البداية اعترافاً أو خسارة، لكنه يعيدها إلى وحدة الفطرة.

الطمأنينة ثمرة الذكر

قال الله تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾. ليس الذكر مجرد ترديد باللسان، وإن كان ذكر اللسان باباً عظيماً، بل هو حضور الله في الوعي: أن نذكره عند الخوف، وعند النعمة، وعند القرار، وعند اشتعال الغضب.

حين يضيق الرزق تقول النفس: هذا ابتلاء، لا إهانة. وحين يتسع تقول: هذا ابتلاء، لا شهادة تفوق. وحين ترى الطاغية نذكر: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبَلْصَادِ﴾. وحين يطول ليلها نذكر: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسَّرَ﴾. هكذا تتحول آيات السورة كلها إلى ينابيع للطمأنينة.

الذكر يعيد الأشياء إلى أبحامها. المشكلة التي احتلت الوعي كله تصغر حين توضع أمام قدرة الله، والنعمة التي أوشت أن تُعبد تعود هبةً حين يُذكر واهبها، والعدو الذي ملأ القلب خوفاً يصبح عبداً محدوداً حين يُذكر رب العالمين.

وحين يغيب الذكر، نتضخم الأشياء. يصبح المال مصيراً، ورأي الناس حكماً نهائياً، والخسارة نهاية، والمرض هويةً كاملة. ليست الأشياء هي التي كبرت في ذاتها، بل غاب عن المشهد معنى الله، فبدا الجزء كأنه الكل.

والقلب لا يفرغ؛ إن لم يمتلئ بالذكر امتلاً بالهواجس. الإنسان يردد دائماً شيئاً في داخله: خوفاً، أو ندماً، أو كلمات الناس، أو توقعات المستقبل. والذكر ليس إضافة أصوات جديدة إلى هذا الازدحام، بل إعادة المركز إلى ما يستحقه؛ إلى الله الذي إذا حضر معناه انتظمت حوله بقية المعاني.

الطمأنينة والعمل

قد يتوهم بعض الناس أن الطمأنينة حال ساكنة تدعو إلى الانسحاب من الواقع، لكن النفس المطمئنة من أقدر النفوس على العمل؛ لأنها لا تهدر طاقتها كلها في الخوف من النتائج. تفعل ما عليها، وتأخذ بالأسباب، ثم تترك ما لا تملكه لله.

أما المضطرب فيريد ضمان المستقبل قبل أن يبدأ، ويطالب الطريق بأن يكشف له نهايته. وربما شلّه الخوف من الفشل، أو جعله يتخذ قرارات متعجلة ليتخلص من القلق. النفس المطمئنة تعرف أن النجاح ليس كله بيدها؛ عليها الصدق والسعي، أما الثمرة فله.

وهذا يحررها من عبادة النتائج. تقيم العدل لأن العدل حق، لا فقط لأنه سيمنعها نصراً عاجلاً؛ تقول الكلمة الصادقة ولو لم تجد تصفيقاً تزرع الخير وإن لم تدرك الحصاد. ليست لا مبالية بالأثر، بل لا تجعل تأخره دليلاً على عبث العمل.

كان أنبياء الله أكثر الناس عملاً وهم أكثرهم توكلاً؛ لأن الثقة بالله لم تكن بديلاً عن الحركة، بل روحها. نوح عليه السلام بنى السفينة، وموسى خرج بقومه، والنبي ﷺ خطط للهجرة، وكلهم يعلمون أن النجاة من الله. فالطمأنينة لا تلغي السبب، بل تمنع السبب من أن يحتل مقام الرب.

كيف تكون النفس المطمئنة؟

لم تولد النفس مطمئنةً كاملة، بل مرت في طريق طويل من المجاهدة. فيها من طبيعتها شهوة تدعو، وخوف يضطرب، ورغبة في التملك، وحب للعاجلة.

وكل موقف في الحياة كان إزميلاً يختبئ: أتقدم الحق أم الهوى؟ أترد المظلمة أم تبررها؟ أطمئن إلى وعد الله أم إلى ما في اليد؟

تتكون الطمأنينة من اختيارات صغيرة متكررة، لا من لحظة شعورية واحدة. من صلاة حافظ عليها الإنسان حين لم يجد فيها اللذة التي يريدها، ومن صبر على عادة سيئة حتى انكسرت، ومن صدق في موضع كان الكذب أسهل. كل مرة يختار فيها الله، يرسخ داخل نفسه طريق العودة إليه.

وقد تمر النفس بأحوال ذكرها أهل العلم في ضوء القرآن: تكون أماراً بالسوء حين تسترسل مع الهوى، ولوامةً حين يستيقظ فيها الضمير فتلوم نفسها، ثم تبلغ الطمأنينة حين يستقر فيها الإيمان. وهذه ليست صناديق مغلقة لا تتداخل، بل مسيرة مجاهدة؛ قد يعلو في الإنسان حال ويضعف آخر، حتى يغلب عليه ما لقي الله به.

النفس اللوامة نعمة، وإن آلمت صاحبها؛ فاللوم الصادق دليل أن القلب لم يمت. الخطر ليس أن تخطئ ثم تتألم، بل أن تخطئ ولا تشعر، أو أن تحول كل لوم إلى كراهية مدمرة للنفس. التوبة لا تقول للإنسان: أنت لا تصلح، بل تقول: هذا الفعل لا يليق بمن يمكن أن تكونه.

والطمأنينة لا تعني العصمة. قد تزل النفس المطمئنة، لكنها لا تتخذ من الزلة بيتاً؛ تعود سريعاً، ويؤلمها البعد، ولا تزين لنفسها الخطأ كي تحافظ على

كبريائها. طمأنيتها ليست ثقةً بكاملها، بل ثقةٌ بربها، ولهذا تظل مستغفرةً خائفةً راجيةً.

الطمأنينة بين النعمة والمحنة

السورة عرضت حالين: الإكرام والتنعيم، وتقدير الرزق. والنفس غير المهتدية تضطرب بينهما؛ تنتفخ في السعة وتنهار في الضيق. أما المطمئنة فتثبت على معرفة واحدة بالله، وإن تغيرت الأحوال.

إذا أُعطيت شكرت، فلم يجعلها العطاء طاغيةً؛ وإذا مُنعت صبرت، فلم يجعلها المنع يأسه. لا يعني هذا أن السعة والضيق يتساويان في شعورها؛ فهي تفرح بالنعمة وتئنم من الفقد، لكنها لا تسمح لأي منهما أن يعيد تعريف علاقتها بالله.

لقد تعلمت أن الرزق حادث، وأن الرب ثابت؛ وأن الصحة تتغير، وأن رحمة الله لا تتغير؛ وأن الناس يقبلون ويدبرون، وأن باب الله لا يغلق. لذلك لا تسند قلبها إلى الحال، بل إلى رب الحال.

إن كثيراً من قلق الإنسان يأتي من بناء هويته على شيء متغير. يقول في باطنه: أنا وظيفتي، فإذا فقدتها شعر أنه فقد ذاته؛ أنا علاقتي بفلان، فإذا رحل ضاع تعريفه؛ أنا صحي، فإذا مرض لم يعرف نفسه. أما النفس المطمئنة

فتعرف أولاً أنها عبدة لله، ثم تأتي بقية الأدوار حول هذا الأصل؛ بتغيير دون أن تسقط النواة.

ليست الطمأنينة بروداً تجاه الظلم

ربما يسيء البعض فهم الطمأنينة، فيجعلونها قبولاً بالظلم أو سكوتاً عن الفساد. لكن السورة التي ختمت بالنفس المطمئنة هي نفسها التي أدانت عاداً وثمود وفرعون، وقالت: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمُرْصَادِ﴾، ووبخت من لا يكرم اليتيم ولا يطعم المسكين. فلا يمكن أن تكون طمأنينتها انفصلاً عن العدل.

النفس المطمئنة تغضب للحق، لكنها لا تجعل الغضب رباً يقودها إلى تجاوز الحدود. تقاوم الطغيان دون أن تستعير أخلاقه، وتنصر المظلوم دون أن تتغذى على الكراهية، وتطلب العدالة دون أن يتحول قلبها إلى سجن آخر.

هي ثابتة لا باردة، رحيمة لا مستسلمة، قوية لا متوحشة. تعرف أن بعض السلام الداخلي يحتاج إلى موقف خارجي؛ فالساكت عن ظلم يقدر على منعه قد يهرب من الصراع، لكنه لا يبلغ الطمأنينة الصادقة، لأن صوت الحق سيظل يطالبه من داخله.

وليس كل هدوء طمأنينة؛ قد يكون استسلاماً أو موتاً في الحس. الطمأنينة القرآنية حية، يقظة، تعرف موضعها في صف الحق. سكونها إلى الله يمنحها شجاعة في مواجهة ما يخالف أمره، لا عذراً للانسحاب.

﴿ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ﴾: الموت بوصفه عودة لا ضياعاً

ثم يأتي الأمر المشبع بالحنين: ﴿ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ﴾. لم يقل: اذهبي، بل: ارجعي. والرجوع يعني أن الوجهة ليست غريبة عن أصل الرحلة؛ خرج الإنسان إلى الدنيا بأمر الله، وعاش في ملك الله، ثم يعود إلى ربه.

إن الموت في الحس البشري فراق: يخرج الحبيب من البيت، ويغيب صوته، ويبقى مكانه فارغاً. لكنه في لغة الإيمان رجوع. نحن نرى جهة الغياب عنا، والوحي يكشف جهة القدوم على الله. وما أوسع المسافة بين من يرى الموت حفرةً تسقط فيها الحياة، ومن يراه باباً تعود منه النفس إلى ربها!

لا يلغي معنى الرجوع حزن الفقد؛ فالقلب مفطور على الأُنس بمن يحب. لكنه يمنع الحزن من التحول إلى عدم. الراحل لم يذب في الفراغ، بل انتقل من دار إلى دار، وخرج من علمنا المحدود ولم يخرج من علم الله ورحمته.

﴿إِلَىٰ رَبِّكِ﴾؛ إلى من خلقك وعرف ضعفك، ومن سترك بعد الزلّة، وأطعمك حين كنت لا تملك لنفسك شيئاً، وحملك في المنع والعطاء. ليس

الرجوع إلى مجهول، بل إلى الرب الذي كانت كل لحظة عناية في الدنيا أثراً من ربوبيته.

إن المؤمن حين يخاف الموت لا يَلام على طبيعته البشرية، لكن الإيمان يعيد تشكيل هذا الخوف. يخشى تقصيره وما ينتظره من حساب، لكنه يرجو لقاء رب كريم. فلا يكون الموت محبوباً لذاته، ولا تُطلب نهايته هرباً من الأمانة، لكنه حين يأتي في أجله لا يبدو اقتلاعاً من كل معنى.

ومن عاش راجعاً إلى الله في الدنيا، سهل عليه معنى الرجوع الأخير. كان يرجع إليه بعد الذنب بالتوبة، وبعد الخوف بالدعاء، وبعد النعمة بالحمد، وبعد الحيرة بالاستخارة. صارت حياته سلسلةً من الرجوعات الصغيرة، حتى جاء الرجوع الكبير فألف القلب وجهته.

أما من فر من الله طوال عمره، فإن كلمة ﴿ارْجِعِي﴾ تفاجئه بحقيقة لم يستعد لها. والمشكلة ليست في أن العودة لم تكن معلومة، بل في أنه بنى حياته كلها كأنه لن يعود.

من ضيق العالم إلى سعة الرب

الدنيا تضيق بالإنسان مهما اتسعت. لكل مكان حد، ولكل علاقة احتمال، ولكل جسد طاقة. قد يحمل المرء في قلبه ما لا يجد له موضعاً كاملاً عند أحد؛ أو جاعاً لا يحسن شرحها، وأسئلة يعجز الآخرون عن حملها.

وحين يقال للنفس: ﴿ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ﴾، فإنها ترجع إلى من يعرفها دون أن تشرح، ويعلم حاجتها قبل أن تسأل، ولا يضيق بتكرار عودتها. كانت تبحث في الخلق عن أمان كامل لا يملكونه، حتى وجدت عند الرجوع أن ما كانت تطلبه في الشذرات موجود عند ربها في كمال يليق به.

كم تعبت النفس وهي تحاول أن تكون مفهومة لدى الجميع! تشرح نيّتها، وتدافع عن نفسها، وتلاحق صورها في عيون الناس. ثم نتعلم أن الله يعلم، وأن هذه المعرفة تكفيها دون أن تلغي واجب البيان حين يلزم. الطمأنينة أن لا تجعل سوء فهم الآخرين قادراً على هدم معرفتك بنفسك أمام الله.

﴿رَاضِيَةٌ﴾: حين ينظر القلب إلى الطريق كله فيرى حكمة الله

تعود النفس إلى ربها ﴿رَاضِيَةٌ﴾. راضية عن ربها، وعن قضائه، وعن الجزاء الذي أعده لها. والرضا مقام عظيم لا يعني أن الإنسان أحب كل ألم لذاته، بل أنه لم يعترض على حكمة الله ولم يتهم رحمته.

في الآخرة تتكشف للنفس من وجوه الحكمة ما كان محبوباً عنها في الدنيا. ترى كيف حماها منع ظنته حرماناً، وكيف ربّاه كسر حسبته نهاية، وكيف أُجِلَّتْ إجابة لأن وقتها الأول لم يكن رحمة. ربما ترى أن الطريق الملتوي في نظرها كان أقصر الطرق إلى نجاتها.

وكم من سؤال مؤلم سيهدأ حين تتكشف الصورة الكاملة! نحن نحكم الآن من داخل جزء صغير من القصة؛ نرى الخيط منفرداً فيبدو بلا معنى، أما الله فيرى النسيج كله. وعند تمام اللقاء، تدرك النفس أن يد العناية لم تتركها في المواضع التي شعرت فيها بالوحدة.

لكن الرضا لا يؤجل كله إلى الآخرة؛ نتعلم النفس شيئاً منه في الدنيا. تقول عند البلاء: يا رب، أتألم، لكنني لا أتهمك؛ لا أفهم، لكنني أثق بك؛ أسألك التغيير، فإن تأخر لم أنقطع عن بابك. هذا الرضا ليس سهلاً، ولا يُنتزع بكلمة وعظية ممن ينزف، بل ينمو بمعرفة الله وتجارب اللطف المتراكمة.

ولا يحق لأحد أن يستخدم مقام الرضا لإسكات المظلوم. يقال له: ارض بالله، ولا يقال له: ارض بالظلم بوصفه حقاً. له أن يطلب رفعه ويقاومه ويحاسب صاحبه، وهو راضٍ عن الله غير راضٍ عن المعصية. فالرضا بالقضاء لا يعني الرضا عن كل فعل بشري وقع في نطاق القدر؛ الله قدّر وجود المعاصي لحكمة، لكنه لا يحبها ولا يأمر بها.

الرضا ليس انطفاء الإرادة

قد يظن الإنسان أن الراضي لا يطلب تغيير حاله، لكن الأنبياء دعوا واستنصروا وطلبوا الشفاء والنصر، وهم أعظم الناس رضا. الرضا يتعلق بالقلب في علاقته بالله، والسعي يتعلق بالتكليف في علاقته بالأسباب. تستطيع أن ترضى بالله وتطرق كل باب مشروع للخروج من محتكك.

المريض الراضي يطلب العلاج، والفقير الراضي يعمل، والمظلوم الراضي يطالب بحقه. الفرق أنه لا يجعل تأخر النتيجة سبباً لعداوة القدر أو احتقار نفسه. إنه يسعى بكرامة، لا بهلع؛ ويطلب، لكنه لا يعبد المطلوب.

والرضا لا يعني أن تكون المشاعر كلها هادئة من اللحظة الأولى. قد يضطرب الإنسان عند الصدمة، ثم يجمع قلبه شيئاً فشيئاً. ليس كل بكاء سخطاً، ولا كل حزن اعتراضاً. مريم عليها السلام قالت من شدة الكرب: **يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا**، وهي الصديقة الطاهرة. إن الله يعلم ضعف اللحظة، ولا يكلف القلب أن يكون حجراً.

الرضا العميق قد يسكن تحت موجة الألم؛ يتألم السطح، لكن الأصل لا ينقطع عن الله. وربما لم يستطع الإنسان أن يقول كلمات كثيرة، لكنه ظل متجهاً إلى ربه، وهذا من علامات الحياة في قلبه.

﴿مَرْضِيَّةٌ﴾: حين يرضى الله عن النفس

لم يقل فقط: راضيةً، بل قال: ﴿مَرْضِيَّةٌ﴾. وهذه أعظم من الأولى؛ فما قيمة رضا الإنسان إن لم يرض الله عنه؟ لقد رضيت النفس عن ربها، فتلقاها ربها برضوانه.

رضا الله هو الغاية التي تمتضال أمامها كل الغايات. قد يرضى الناس عنك اليوم ويسخطون غداً، وقد يمدحون فيك ما يذمون في غيرك، وأحكامهم ناقصة تحكمها المصالح والأهواء. أما رضا الله فعلم وعدل ورحمة، وإذا رضي عن عبد فقد بلغ الأمان الذي لا تهدده تقلبات البشر.

والمطمئنة لم تبلغ هذا المقام بادعائها أنها كاملة، بل بصدق عبوديتها. كانت تذنّب فتتوب، وتضعف فتستعين، وتعمل ثم تخاف ألا يقبل عملها. لم تنكس على حسناتها كأنها ثمن الجنة، بل علمت أن النجاة برحمة الله، وأن العمل دليل صدق الافتقار لا استغناء به.

ومن علامات طلب رضا الله أن يفعل الإنسان الخير حين لا يراه الناس. فإذا كان نشاطه يشتعل أمام العيون ويخبو في الخلوة، فعليه أن يراجع وجهته. ليست كل محبة للثناء رياءً مخزجاً للعمل من القبول، فالنفوس تحب المدح بطبعها، لكن المجاهدة أن لا يصير المدح هو الوقود الذي يتوقف العمل بغيابه.

والإخلاص ليس شعوراً يفرغ القلب دفعةً واحدة من كل النفات، بل مراقبة مستمرة للنية. قد تبدأ العمل وفيها اختلاط، فتجدد القصد، وتدفع عن نفسك حب الظهور. وربما كان خوفك على إخلاصك علامةً على حياة قلبك، ما لم يتحول إلى وسواس يمنعك من العمل.

بين ﴿رَبِّي أَكْرَمَنِي﴾ و﴿مَرْضِيَّةً﴾

في وسط السورة قال الإنسان مغترّاً: ﴿رَبِّي أَكْرَمَنِي﴾، وفي ختامها تأتي الكرامة الحقيقية: ﴿رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً﴾. لقد كان الإكرام الأول دعوى بناها الإنسان على النعمة، أما الثاني فشهادة من الله بعد اكتمال الامتحان.

الإنسان في الدنيا استعجل الحكم قبل ظهور النتيجة، فجعل المال دليلاً على منزلته. أما النفس المطمئنة فلم تشغلها منزلتها بقدر ما شغلها صدق عبوديتها، حتى جاءها التزكية من ربها.

ومن هنا نعرف أن الكرامة لا تُعلنها الخزائن، بل يعلنها القبول؛ لا يثبتها تصفيق الناس، بل رضا الله. قد يعيش إنسان في ضيق ويكون مرضياً، ويعيش آخر في نعيم وهو مستدرج. ولهذا لا يحق لنا أن نقرأ أقدار الناس بوصفها أحكاماً على مقاماتهم.

ولا ينبغي للمؤمن أن يزي نفسه فيقول: أنا مرضي عند الله؛ فهذا غيب لا يعلمه على التفصيل إلا الله. يعمل ويرجو ويخاف، ويرى فضل الله عليه، ولا يتخذ طاعته وسيلةً للاعتلاء على العصاة. ربما ختم الله لعاصٍ بتوبة صادقة، وربما فتن معجباً بعمله فعاد القهقري.

كيف يصير العبد راضياً مرضياً؟

يصير راضياً حين يعرف الله معرفةً تتجاوز المعلومات إلى الثقة، ومرضياً حين يترجم هذه المعرفة عبوديةً وعدلاً ورحمة. ليس الطريق وجداً داخلياً فقط، بل موقفاً من اليتيم والمسكين والمال والحقوق.

إن من يريد مقام النفس المطمئنة وهوياً كل التراث أكلاً لما يتوهم طريقاً غير طريق القرآن. ومن يطلب رضا الله ولا يكرم الضعفاء يريد الثمرة دون جذرها. فالطمأنينة ليست مكافأةً على العزلة عن الناس، بل ثمرة قلب استقام مع الله، فاستقامت يده مع خلقه.

وقد جمعت السورة بين التوحيد والعدل الاجتماعي على نحو لا يسمح بالفصل بينهما. القلب الذي اطمأن إلى الله لا يحتاج أن يسرق حق غيره ليأمن، ولا أن يجمع المال جمعاً مرضياً ليضمن الغد. ثقته بالله تحرره من كثير من دوافع الظلم، وإيمانه بالحساب يمنعه من الباقي.

والتدين الذي يكثر فيه الذكر ويقل فيه رد الحقوق يحتاج إلى مراجعة؛ لأن الله الذي أمر بالذكر أمر بالعدل. والرحمة التي تنهمر دموعاً في الصلاة ثم تجف أمام المسكين لم تبلغ كمالها. قد يكون في القلب خير حقيقي، لكنه محتاج إلى أن يعبر إلى اليد والسلوك.

﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي﴾: النجاة من وحدة الذات إلى شرف الانتماء

بعد أن رجعت النفس إلى ربها راضيةً مرضيةً، قيل لها: ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي﴾. لم يقل: ادخلي بين خلقي، بل أضاف العباد إلى نفسه إضافة تشريف: عبادي.

لقد كانت العبودية في الدنيا تكليفاً ومجاهدة، وصارت هنا هوية تكريم. كان الإنسان يظن أن العبودية قيد، فإذا بها باب الحرية والنجاة. وكان الطغاة يهربون منها إلى ادعاء السيادة، فخرجوا من مقام التكريم إلى مقام الوثاق.

والدخول في العباد يعني الانضمام إلى جماعة الصالحين في مقام القرب والأمان. فالإنسان الذي عاش غريباً بسبب استقامته يجد هنا الجماعة التي لا غربة فيها. ربما سار في الدنيا وحيداً، وسخر منه من حوله، وخسر علاقات لأنه رفض الباطل؛ لكنه لم يكن وحيداً على الحقيقة، بل كان في الطريق إلى ﴿عِبَادِي﴾.

إن من أعمق حاجات النفس أن تنتمي. قد تتحمل الألم إذا شعرت أنها ليست وحدها، لكن العزلة المعنوية تكسرها. ولهذا يبحث الإنسان عن جماعة تعترف به، وربما تنازل عن بعض قيمه حتى لا يُنبذ. تأتي الآية لتقول إن الانتماء الأعلى ليس إلى الجماعة التي تطلب منك أن تعصي الله كي تقبلك، بل إلى عباد الله الذين يجمعهم الحق وإن تباعدت الأزمنة والأماكن.

كان المؤمن يقرأ قصص الأنبياء والصالحين ويشعر أنهم أهله البعيدون، ثم يأتي اليوم الذي يدخل فيه بينهم. يلتقي بمن أحبه دون أن يرههم، ويصبح الإيمان الذي جمع الأرواح في الدنيا قريباً ظاهراً في الآخرة.

من الفردية إلى الجماعة

الخطاب بدأ مفرداً: ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ﴾، ثم انتهى إلى الجماعة: ﴿فِي عِبَادِي﴾. فالخلاص مسؤولية شخصية، لكن ثمرته ليست عزلة أبدية. يقف كل إنسان بعمله، ثم يدخل في مجتمع الطهر والرضا.

والإسلام لا يبني نفساً ذائبةً بلا إرادة في الجماعة، ولا فرداً منقطعاً عن مسؤولية الآخرين. يريد شخصاً له ضمير يتحمل به الحساب، وله أخوة ينصر بها الحق. وحين يختل هذا التوازن، إما أن تسحق الجماعة صوت الفرد، وإما أن تتحول الفردية إلى أنانية لا ترى يتيماً ولا مسكيناً.

النفس المطمئنة تعرف كيف تكون نفسها دون كبر، وكيف تنتمي دون ذوبان. تقف مع الحق ولو خالفها الأقربون، لكنها لا تملذذ بالمخالفة ولا ترى ذاتها مركزاً للكون. تنتمي إلى عباد الله لأنهم عباد الله، لا لأنهم يطابقون مزاجها في كل تفصيل.

وفي قوله: ﴿فِي عِبَادِي﴾ أمان من صحبة السوء التي ربما أتعبت الإنسان في الدنيا. كم من قلب أفسدته بيئة تسخر من الطاعة، أو رفقة زينت له الذنب! الإنسان يتشكل بمن حوله؛ لذلك كان اختيار الصحبة جزءاً من بناء النفس المطمئنة. ومن أراد أن يدخل في عباد الله هناك، فليحرص أن يسير معهم هنا.

العبودية التي هرب منها الطغاة

عاد قالت: من أشد منا قوة؟ وثمود عتت عن أمر ربها، وفرعون قال: أنا ربكم الأعلى. كانت مشكلتهم جميعاً رفض مقام العبودية. ظنوا أن العبودية تنقصهم، فطلبوا العلو، ولم يعلموا أن من خرج عن عبودية الله دخل في عبودية شهوته وخوفه.

أما النفس المطمئنة فقد رضيت أن تكون عبدة، فشرها الله بإضافتها إليه: ﴿عِبَادِي﴾. وهنا تنقلب الموازين: الطاغية الذي أراد أن يكون فوق الناس صار تحت العذاب، والعبد الذي تواضع لله ارتفع إلى مقام القرب.

العبودية لله ليست إذلاً للإنسان، بل نزع لألوهية البشر من فوقه. حين يقول المؤمن: أنا عبد لله، فهو يقول في الوقت نفسه: لست عبداً للطاغية، ولا للمال، ولا للعرف حين يخالف الحق. ولهذا كانت كلمة التوحيد تحريراً سياسياً واجتماعياً وروحياً في آن واحد.

الطاغية يريد من الناس طاعةً تشبه العبادة، يريد أن تمتثل أمام إرادته الأسئلة الأخلاقية، أما التوحيد فيقيم في القلب حداً لا يستطيع الحاكم تجاوزه: السمع والطاعة في المعروف، ولا طاعة لخلق في معصية الخالق.

ومن هنا يفهم سر خوف الطغاة من الإيمان الحي؛ إنه لا يجعل المؤمن فوضوياً، لكنه يمنعه من تأليه السلطة. يعمل للخير العام، ويحفظ النظام العادل، لكنه يحتفظ في قلبه بمرجع أعلى من كل قوة أرضية.

﴿وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾: الإضافة التي تختصر النعيم كله

وتأتي آخر كلمات السورة: ﴿وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾. لم يقل: وادخلي الجنة فقط، بل أضافها الله إلى نفسه: ﴿جَنَّتِي﴾. وما أرق هذه الإضافة وأعظمها!

كأن كل ما في الجنة من أنهار وقصور وثمار وحياة لا موت فيها يختصر في أنها جنة الله، ودار كرامته، والمكان الذي أعده لعباده.

لقد كانت النفس في الدنيا تبحث عن موطن لا تُهد فيه بالفقد. كلما استقرت في بيت خافت أن تتركه، وكلما أحبت إنساناً خافت فراقه، وكلما ذاقت نعمةً رأت ظل الزوال يمتد خلفها. أما الجنة فهي الوطن الذي لا يهدده الرحيل.

الجنة ليست متاعاً مضاعفاً من جنس متاع الدنيا وحده، بل تصحيح كامل لعلاقة النفس بالوجود. لا خوف يفسد اللذة، ولا مرض ينغص الجسد، ولا حسد يعكر الصلة، ولا موت يقف خلف الباب. هناك تنال النفس ما أرادت وقد طهرت إرادتها من كل ما يؤذيها أو يؤذي غيرها.

وفي الدنيا قد يحصل الإنسان على الشيء ويبقى قلقه؛ لأن المشكلة لم تكن دائماً في نقص الممتلكات، بل في القلب الذي لا يشبع. أما أهل الجنة فقد نزع ما في صدورهم من غل، وصارت نفوسهم صالحةً للنعيم الباقي. فالجنة تحتاج إلى إعداد الداخل كما تحتاج إلى العمل الموصل إليها؛ إذ لا يكون المكان وحده جنةً إذا حمل الإنسان إليه أمراض قلبه.

ومن هنا نفهم أن بناء النفس المطمئنة هو إعداد للعيش في الجنة. القلب الذي يتعلم الرضا، والرحمة، والتحرر من الحسد والجشع، يتدرب على أخلاق

الدار التي لا نزاع فيها. أما من جعل سعادته في الاستعلاء على الآخرين، فكيف يستعد لدار لا ظلم فيها؟

من جنات الأرض الزائلة إلى جنة الله

عاد بنت ما لم يُخلق مثله في البلاد، وثمود نحتت الصخر في الوادي، وفرعون شيد ملكه بالأوتاد. صنعوا لأنفسهم جنات أرضية من القوة والعمران، لكنها انهارت لأنهم أرادوها منفصلةً عن الله والعدل.

أما النفس المطمئنة فلم تجعل الدنيا جنتها الأخيرة، ولذلك لم تحتاج أن تظلم كي تضمناها. عاشت فيها بمسؤولية، واستمتعت بحلالها، لكنها أبقت قلبها معلقًا بالدار التي لا تزول. لم تحتقر الدنيا، بل حررتها من أن تحمل ما لا تحتمل.

إن من ظن أن الدنيا فرصته الوحيدة سيصارع على كل شيء كأن فقدته نهاية. ربما يأكل حق أخيه في الميراث؛ لأنه لا يرى خزائن أخرى، ويخجل على المسكين؛ لأنه يظن أن ما يخرج من يده ضاع. أما من آمن بجنة الله، فقد اتسع أفقه؛ يعرف أن العطاء هنا يفتح باباً هناك، وأن ما يتركه الله لا يضيع.

وليس الإيمان بالجنة تعويضاً وهمياً يُطلب به من المظلومين قبول الظلم؛ بل هو مصدر قوة لمقاومته، ومعياري يفضح جنات الطغاة الزائفة. المؤمن يعمل

لإقامة العدل في الأرض لأنه مأمور، ويعلم في الوقت نفسه أن العدل الكامل في الآخرة؛ فلا يقنط إذا مات قبل تمام ما سعى إليه.

الدخول مرتين: في العباد ثم في الجنة

قال تعالى: ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ۖ وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾. دخول في الجماعة، ثم دخول في الدار؛ حبة صالحة ومكان كريم. فالنعم ليس أشياء فقط، بل علاقات طاهرة أيضاً. الجنة لا تكتمل في التصور الإنساني بالقصر والحديقة إذا كان القلب وحيداً؛ لذلك جمع الله للعبد بين الصحبة والوطن.

في الدنيا قد يجد الإنسان مكاناً جميلاً مع صحبة تؤذيه، أو حبة يحبها في مكان يضيق بهم. أما الجنة فتجمع كمال المكان وكمال الرفقة، ثم يعلو فوق ذلك كله رضوان الله.

وتقديم الدخول في العباد على الدخول في الجنة يشير إلى شرف الانتماء إلى أهل العبودية، وإلى أن حبة الصالحين جزء من النعم لا هامش عليه. وربما كان في ذلك امتداد لمسؤولية الإنسان الاجتماعية في السورة: من لم ير اليتيم والمسكين في الدنيا، كيف يتصور النجاة بوصفها شأنًا فرديًا خالصًا؟ الطريق إلى الله يمر عبر حقوق عباده.

الجنة ليست ثمناً حسابياً للعمل

مهما عمل الإنسان، لا يستطيع أن يجعل عمله مكافئاً لنعم لا ينفد. فنحن نعمل بتوفيق الله، ونتقلب في نعمه ونحن نطيعه، ثم يدخلنا الجنة برحمته. العمل سبب ودليل صدق، لكنه ليس ثمناً مستقلاً يوجب على الله شيئاً.

وهذا المعنى يحجي النفس من العجب. لا تقول: استحققت الجنة بصلاحي، بل تقول: أرجو أن يتقبل الله صلاتي، وأن يدخلني برحمته. ترى تقصيرها بجانب نعمه، فلا تتعالى على الناس. قد تكون طاعتها أكثر من طاعة آخر، لكنها لا تعلم الخواتيم ولا خبايا القلوب.

وفي الوقت نفسه لا تستخدم الرحمة ذريعة لترك العمل. من صدق رجاءه طرق الباب، ومن أحب الجنة سلك طريقها. أما من يقول: الله رحيم، ثم يصصر على ظلم الضعفاء وأكل الحقوق، فقد حول الرحمة من باب للعودة إلى غطاء للغفلة.

الرجاء الحقيقي يشبه جناحاً يحمل الإنسان إلى الطاعة، لا وسادة ينام عليها بعيداً عنها. والخوف الحقيقي يمنعه من المعصية، لا من الأمل. وبينهما تسير النفس حتى تصل إلى مقام: ﴿رَاضِيَةٌ مَرْضِيَّةٌ﴾.

الفجر الأخير

بدأت السورة بقوله تعالى: ﴿وَالْفَجْرِ﴾ ، وانتهت بقوله: ﴿وَادْخُلِيْ جَنَّتِيْ﴾. وبين الفجر والجنة رحلة نور كاملة. الفجر الأول شق ظلمة الليل في الكون، أما الجنة فهي الفجر الذي لا يأتي بعده ليل؛ نور مستقر لا تغشاه عتمة الفقد.

في الدنيا، كل فجر يعقبه غروب، وكل لقاء يطارده احتمال الفراق، وكل صحة تریص بها الشيخوخة. أما دخول الجنة فهو الخروج النهائي من دورة الزوال. لا يسري ليل بعدها، ولا يتهدم مأوى، ولا يدك نعيم.

وكان السورة تقول للنفس: كنت تشاهدين الفجر كل يوم ليتدرب قلبك على الإيمان بالنهايات المضيئة. كل ليل انقشع كان رسالة صغيرة عن الليل الأكبر الذي سينقشع حين تعودين إلى ربك. وكل طاغية سقطت كان شاهداً أن الطريق لا ينتهي عند سلطانه، وكل محنة مرت كانت تدريباً على الثقة بأن الحال لا يخلد.

الفجر ليس في مطلع السورة قسماً فحسب، بل هو مفتاح فهمها كلها. سقوط عاد فجر للمقهورين، وهلاك ثمود انكشاف لوهم الصخر، وغرق فرعون شروق للحرية بعد ليل الاستعباد، وتصحيح مفهوم الرزق فجر في

الوعي، وإكرام اليتيم فجراً في الأخلاق، وإطعام المسكين فجراً في المجتمع، والتوبة قبل الحسرة فجراً في المصير، ونداء النفس المطمئنة هو الفجر الأبدي.

الرحلة من المرصاد إلى الرضا

قالت السورة في قلبها: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمُرْصَادِ﴾، وقالت في ختامها: ﴿رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾. ومن عرف الله بالمرصاد للظالم، عرفه باباً للطمأنينة للمظلوم. ليست الرقابة الإلهية مصدر خوف مجرد؛ إنها أساس الأمان أيضاً. لأن الله يرى، فلن يضيع حقه؛ ولأنه يعلم، لا تحتاج أن يصدقك العالم كله؛ ولأنه عادل، لن يساوي بين من كسر ومن جبر.

والنفس المطمئنة لم تطمئن لأنها نسيت المرصاد، بل لأنها عاشت مستحضرتها. حفظها من ظلم الناس، وطمأنها حين ظلمها الناس. خافته ورجته، حتى صار الوقوف بين يديه لقاءً برب عرفته في الدنيا.

أما الغافل فقد رأى المرصاد تهديداً لحريته، فهرب منه إلى شهواته، ثم وجد الشهوة وثاقاً. والمؤمن رآه حمايةً من نفسه، فاستقام، ثم وجد الطاعة طريقاً إلى الجنة.

الرحلة من حب المال إلى حب الله

قال تعالى: ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾، ثم ختم بدعوة النفس إلى جنة الله. وبين الحبين يتحدد المصير. ليس المطلوب أن يخرج حب المال من الطبيعة الإنسانية كلياً، بل ألا يحتل المقام الأعلى الذي لا يليق إلا بالله.

حين يحب الإنسان الله أكثر، يستطيع أن يبذل المال إذا أمره، وأن يترك الحرام ولو كان مربحاً، وأن يحفظ الميراث ولو خسر ما تهواه نفسه. وحين يحب المال أكثر، يبحث عن طريق يجعل الدين موافقاً لمصلحته، أو يؤجل الامتثال حتى لا يخسر.

وليس حب الله ادعاءً عاطفياً، بل ترتيب للأولويات عند التعارض. يعرف كل إنسان حقيقة حبه حين يُطلب منه أن يضحي بشيء لله. قد يكون سهلاً أن تقول: أحب الله، لكن الامتحان يأتي حين تدعوك المحبة إلى عفو، أو إنفاق، أو ترك علاقة محرمة، أو اعتذار يكسر كبرياءك.

والنفس المطمئنة هي النفس التي استقر حب الله في مركزها، فانتظمت سائر المحاب حوله. لم تثقف عن حب الأهل والمال والوطن والحياة، لكنها أحبتها بالله وفي حدوده، فلم تتحول النعم إلى أصنام.

الرحلة من «أنا» إلى «عبادي»

الطغيان يبدأ من «أنا» المتضخمة: أنا الأقوى، وأنا الأحق، وأنا الذي أملك، وأنا الذي أحدد للآخرين مواضعهم. قال فرعون: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾، وقالت عاد: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾، وقال الإنسان المغرور: ﴿رَبِّي أَكْرَمَن﴾.

أما ختام الطريق فهو الخروج من سجن الأنأ إلى سعة العبودية: ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي﴾. لا يعود الإنسان مركز الوجود، بل عبداً كريماً بين عباد الله. يفقد وهم التفرد المتعالي ويكسب شرف الانتماء.

الأنأ ليست شراً في أصلها؛ للإنسان ذات وكرامة ومسؤولية، لكن الخطر حين تضخم حتى لا ترى غيرها. النفس السوية تعرف قدرها دون أن تنكر أقدار الآخرين، وتحفظ حقها دون أن تأكل حقوقهم، وتفرح بموهبتها دون أن تحتقر من يختلف عنها.

والعبودية تهذب الأنأ ولا تحوها. تجعلها تقول: أنا مسؤول، لا أنا مطلق؛ أنا مكرم، لكن غيري مكرم أيضاً؛ لي حق، وعلي حقوق. وهكذا يتحول الفرد من مركز استهلاك إلى موضع أمانة.

النداء الذي يستحق أن يُعاش له

ما الذي يساوي أن يسمع الإنسان في آخر رحلته: ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾؟ أي تعب في الطاعة يصغر أمام هذا النداء، وأي لذة محرمة تستحق أن يُعرض عنها المرء إذا كانت تحجبه عنه؟

نحن نعيش أحياناً من أجل كلمات بشرية: نعمل سنوات كي يقال ناجح، ونستنزف أنفسنا كي يقال قوي، ونبدل بعض حقيقتنا كي يقال محبوب. لكن كل هذه الكلمات تموت بموت أصحابها، وربما تغيرت في حياتهم. أما أن يخاطب الله النفس بوصف الطمأنينة، ويرضي عنها، ويدعوها إلى جنته، فهذه هي الكلمة التي لا يأتي بعدها خوف من تبدل الحكم.

ولا يعني العيش لهذا النداء أن يهمل الإنسان دنياه؛ بل أن يجعل كل تفاصيلها متجهةً نحوه. حين يعمل بإتقان، ويرعى أسرته، ويكتب كلمة حق، ويغيث ضعيفاً، ويصلح بين الناس، فهو يبني طريقه إلى ذلك النداء.

ليست اللجنة حكراً على لحظات العبادة الشعائرية بمعناها الضيق، بل يمكن للحياة كلها أن تصبح عبادةً بالنية والالتزام. نومك لتستعين على الواجب، وكسبك لتعف نفسك وأهلك، وابتسامتك التي تجبر قلباً، وصبرك على أذى لا تستطيع دفعه؛ كلها أبواب إذا صدقت الوجهة.

سورة الفجر في قلب النفس المطمئنة

تحمل النفس المطمئنة معاني السورة كلها في داخلها. تحمل الفجر، فلا تئأس من الليل. وتحمل الليالي العشر، فتغتيم مواسم القرب ولا تحتقر الزمن. وتحمل الشفع والوتر، فتوحد وجهتها لله وتوازن بين جوانب حياتها. وترى الليل يسري، فلا تمنح المحنة صفة الخلود.

وتقرأ عاداً وثمود وفرعون، فلا تنهر بالقوة المنفصلة عن الحق. وتستحضر المرصاد، فلا تظلم حين تقدر، ولا تئأس حين تُظلم. وتفهم الابتلاء، فلا تبطرها النعمة ولا تهينها قلة المال. وتكرم اليتيم، وتحض على طعام المسكين، وتحفظ الميراث، وتضع المال في يدها لا في قلبها.

وتتذكر دك الأرض قبل أن تُدك، فتخفف من صراعتها على الزائل. وتختيل صفوف الملائكة قبل أن تراها، فتعرف صفها في الدنيا. وتتذكر جهنم قبل أن يُجاء بها، فتردع نفسها عن الظلم. وتقول بقلها قبل فوات الوقت: سأقدم لحياتي، حتى لا تقول غداً: ﴿يَا لَيْتَنِي﴾.

بهذه المعاني لا تكون الطمأنينة هديةً معزولة عن الطريق، بل حصيلةً لوعي كامل بالوجود: الله رب، والإنسان عبد، والدنيا ابتلاء، والمال أمانة، والضعيف حق، والطغيان عابر، والآخرة حياة، والجنة وطن.

﴿وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾: الكلمة الأخيرة التي لا يأتي بعدها كلام الخوف

تنتهي السورة عند الجنة، وكأن القرآن لا يريد للقلب أن يغادرها واقفاً عند جهنم، بل متطوعاً إلى الرحمة. الخوف كان طريقاً للتطهير، لكن الغاية ليست أن يعيش الإنسان مذعوراً؛ الغاية أن يصل آمناً.

آخر كلمة معنوية في السورة ليست العذاب، ولا الوثاق، ولا الندم، بل الجنة. وهذا يضع الرحلة كلها في إطار الرجاء. مهما كان في ماضي الإنسان من تقصير، فما دام حياً يستطيع أن يبدأ طريق النفس المطمئنة. باب التوبة لم يُغلق، والمال الذي أحبه يستطيع أن يطهره بالإنفاق، والحق الذي أكله يستطيع أن يردّه، واليتيم الذي أهمله يستطيع أن يكرمه، والمسكين الذي غفل عنه يستطيع أن يطعمه.

ليس مطلوباً أن يولد من جديد بلا تاريخ، بل أن يجعل من تاريخ خطئه طريقاً إلى صدق العودة. ورب توبة رفعت صاحبها؛ لأنها علمته من الانكسار والافتقار ما لم يكن ليعرفه وهو معجب بنفسه.

إن الله الذي حذر من المرصاد هو نفسه الذي قال: ﴿وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾. فلا ينبغي أن نأخذ جانب الوعيد فنقنط، ولا جانب الوعد فنأمن بلا عمل. بل نمضي بينهما، نحمل خشيةً تمنعنا من الأذى، ورجاءً يمنعنا من السقوط.

وحيث يطول الليل، نذكر الفجر. وحيث تفتننا القوة، نذكر عاداً وثمود
 وفرعون. وحيث يتسع الرزق، نذكر الابتلاء. وحيث يضيق، نرفض أن نسميه
 إهانة. وحيث يطرق اليتيم بابنا، نعلم أن كرامتنا تُختبر. وحيث نرى المسكين،
 نفهم أن طعامه حق. وحيث يدعونا المال إلى تجاوز الحد، نذكر دك الأرض.
 وحيث تسوف النفس، نسمع الحسرة قبل أوانها: ﴿يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾.
 ثم نرفع أبصار قلوبنا إلى آخر الطريق، إلى النداء الذي تهدأ عنده مخاوف
 العمر كلها:

﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾
 ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي﴾ و﴿وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾.

هناك يبلغ الفجر تمامه، وتدخل النفس في صباح لا يعقبه مساء.

الخاتمة الفكرية الجامعة

حين يصير الفجر عقيدةً في القلب

تُخْتَم سورة الفجر، غير أن فجراً لا ينتهي. فالسورة التي بدأت بِقَسَمٍ بالنور الخارج من قلب الظلام، انتهت بدخول النفس في جنة لا يدخلها ليل، وكأن الرحلة كلها كانت انتقالاً من فجر مؤقت يشرق على الأرض كل صباح، إلى فجر أبدي يشرق في الروح ولا يغيب؛ من ضوء يلامس وجوه الأشياء، إلى يقين يلامس سر الإنسان، فيعيد إليه معنى الحياة والابتلاء والقوة والمال والمصير.

وليس بين أول السورة وآخرها مشاهد متفرقة، بل بناء متماسك يجري فيه المعنى من آية إلى أخرى كما يجري خيط النور في الأفق. فالقسم بالفجر يقرر أن الظلام مهما اشتد يحل في داخله موعد الرحيل، والليالي العشر تكشف أن الزمن ليس فراغاً، بل مواسم للاصطفاء والعمل، والشفع والوتر يردان كثرة الوجود إلى وحدة خالقه، والليل إذا يسر يحرر القلب من وهم دوام المحنة، ثم يأتي سؤال العقل: ﴿هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حُجْرٍ﴾، ليعلم أن العبرة لا تنقصها الآيات، وإنما قد ينقصها العقل الذي يرى ولا يتدبر.

ومن حركة الزمن انتقلت السورة إلى حركة التاريخ. وقفت بنا عند عاد ذات العماد، وثمود الذين جابوا الصخر بالواد، وفرعون ذي الأوتاد؛ ثلاثة نماذج للقوة حين تفقد ضميرها، وللعمران حين ينفصل عن الإنسان، وللسلطة حين تُنْهَم أن قدرتها على الفعل تمنحها حق الفعل.

كانت عاد فتنة القوة التي رأت نفسها فوق كل قوة، وكانت ثمود فتنة التقنية التي شقت الصخر ولم تستطع أن تشق قسوة القلب، وكان فرعون فتنة الدولة التي جعلت من الخوف نظاماً، ومن تقسيم المجتمع وسيلة للاستمرار، ومن ادعاء حماية الناس باباً لاستعبادهم. اختلفت الأشكال، لكن القرآن جمعها في وصف واحد: ﴿الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفُسَادَ﴾.

فالطغيان ليس حادثة سياسية فقط، بل مرض في معنى الإنسان؛ يبدأ حين تتجاوز النفس حدها، وحين ترى نفسها فوق المسألة، وحين يصبح الآخرون أدواتٍ في مشروعها. وقد يظهر الطغيان في قصر حاكم، لكنه قد يظهر كذلك في بيت أو مؤسسة أو علاقة؛ في أب يجعل القوامة تسلطاً، أو مسؤول يرى من تحته أقل إنسانية، أو غني يشتري بحاجات الناس خضوعهم، أو مظلوم لا يريد إنهاء الظلم بقدر ما يريد أن ينتقل سوطه إلى يده.

لهذا لا تسمح سورة الفجر لقارئها أن يقف أمام أطلال الطغاة متفجعاً. سرعان ما تعيده من عاد وثمود وفرعون إلى نفسه: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ

ربه. فالجذر الذي صنع تلك الحضارات الفاسدة يمكن أن يبدأ من تفسير خاطئ للنعمة؛ من ظن الإنسان أن اتساع رزقه يعني أنه مكرم على نحو مطلق، وأن ضيقه يعني أنه مهان.

إنها المغالطة التي يتسلل منها الطغيان إلى الوعي: المال قيمة، والغنى فضيلة في ذاته، والفقر عيب، والقوي أحق، والضعيف أقل شأنًا. فإذا استقرت هذه الفكرة، صار من السهل أن يُهمل اليتيم، ويُترك المسكين، ويُلتهَم الميراث، ويُحب المال حبًّا جمًّا. لذلك جاءت ﴿كَلَّا﴾ القرآنية لتسقط الميزان كله: كلا، ليست النعمة شهادة رضا نهائية، ولا المحنة حكم إقصاء؛ كلاهما ابتلاء، وما يكشف منزلة الإنسان هو موقفه منهما.

وهذا من أعمق ما تقدمه السورة للعقل المؤمن: أنها تنقل سؤاله من «ماذا أعطاني الله؟» إلى «ماذا صنعت بما أعطاني؟». ليست الكرامة في حجم النعمة، بل في أخلاق حملها؛ ليست في المال، بل في شكره؛ وليست في القوة، بل في عدلها. قد يكون الغني فقيرًا إلى الشكر، والفقير غنيًّا بالله؛ وقد تتحول السعة إلى طريق هلاك، ويتحول الضيق إلى باب معرفة ونجاة.

غير أن القرآن لا يحول الفقر إلى فضيلة آلية، ولا يطلب من المحروم أن يستعذب ألمه بينما يستريح القادرون من واجبه. لقد جعل ضيق الرزق ابتلاءً للفقير، ثم جعل وجود الفقير ابتلاءً للغني والمجتمع. لا يحق للقادر أن يقول

للمسكين: اصبر على قدرك، وينسى أن قدره هو الآخر قد وضعه أمام هذا المسكين ليرى الله ماذا يفعل.

اليتيم: موضع امتحان الكرامة

قال الإنسان: ﴿رَبِّ أَكْرَمَنِي﴾، فأجابه القرآن: ﴿كَأَلَّا بَلًا لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ﴾. وفي هذه المقابلة ينكشف معنى الكرامة كله. إن كنت تزعم أن الله أكرمك، فأين أثر الإكرام فيمن لا سند له؟ كيف تطلب لنفسك كرامة لا تمنح منها الضعيف نصيباً؟

لم يقل القرآن: لا تطعمون اليتيم، بل قال: ﴿لَا تُكْرِمُونَ﴾؛ لأن حاجته ليست إلى الطعام وحده، بل إلى قلب لا يشعره بأنه أقل من غيره، وإلى يد تحفظ ماله، وبيت يرد إليه بعض الأمان، ومجتمع يفتح أمامه باب المستقبل. الإكرام خبز وحنان، مال وعدل، رعاية واحترام.

واليتيم في السورة ليس هامساً عاطفياً، بل معيار حضاري. يستطيع المجتمع أن يخفي فساد موازينه وراء الأبنية والخطب، لكنه ينكشف عند باب الضعيف. فالحضارة التي ترفع الأعمدة ولا ترفع قدر اليتيم لا تزال تحمل في داخلها شيئاً من مرض عاد، والمجتمع الذي ينحت الصخر ولا ينحت في قلبه موضعاً للرحمة يعيد مأساة ثمود بصورة جديدة.

إن أخلاق القوة تُعرف حين نتعامل مع من لا نخشى منه ضرراً ولا ترجو نفعاً. إكرام أصحاب المكانة قد يكون تبادل مصالح، أما إكرام اليتيم فمن أصفى امتحانات الضمير؛ لأن الله وحده غالباً هو الذي يرى حقيقة النية فيه.

المسكين: حين يصبح الجوع سؤالاً للمجتمع كله

ثم قالت السورة: ﴿وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ﴾. لم تكتف بالمطالبة بفعل فردي، بل دعت إلى التحاض؛ إلى أن يوقظ الناس بعضهم بعضاً، وأن تتحول الرحمة من إحساس متفرق إلى ضمير جماعي.

فالجوع ليس قضية الجائع وحده، بل سؤال يوجه إلى كل من علم واستطاع. والمجتمع الذي يرى الطعام يلقي في النفايات ويرى الإنسان ينام جائعاً، ثم لا يجد في ذلك تناقضاً يهز ضميره، قد أصابه فساد في معنى النعمة. المشكلة ليست دائماً في قلة الطعام، بل في قلة الرحمة والعدل، وفي أن حب المال أقنع القادر أن ما في يده لا علاقة له بحاجة غيره.

وإطعام المسكين لا يعني إبقاءه أسيراً للحاجة؛ إنما يبدأ بإغاثته، ثم يمتد إلى تمكينه من أسباب الكفاية. الرحمة تسد جوع اليوم، والعدل يسأل عن النظام الذي قد يعيد الجوع غداً. والقرآن يريد الاثنين: قلباً لا يؤجل الإطعام حتى

تنتهي الدراسات، وعقلاً لا يكتفي بوجبة عابرة ويترك أسباب المسكنة على حالها.

الميراث: حين يُمتحن الإيمان أمام المال القريب

ثم تبلغ السورة موضعاً شديد الحساسية: ﴿وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا﴾. إن بعض الناس يستطيع أن يتحدث عن العدل في القضايا البعيدة، لكنه يتعثر حين يصل العدل إلى قطعة أرض بينه وبين أخته، أو مال بينه وبين يтим. الميراث يكشف مقدار خضوع الإنسان لله حين تأتي القسمة مخالفة لهواه. هناك تجرد الشعارات، ويظهر الدين في صورته العملية: أترضى بحكم الله إذا أنقص نصيبك مما تشتهي؟ أترى حق المرأة حقاً واجباً، أم فضلاً تمنحه إن رضيت؟ أتحفظ مال اليتيم حين تستطيع الوصول إليه؟

وقد يعجز صاحب الحق عن المطالبة، أو يسكت خوفاً من القطيعة، لكن الصمت لا يجعل الحرام حلالاً. الله بالمرصاد للكلمة التي هددت، والعرف الذي استخدم ستاراً، والتوقيع الذي انتزع بالضغط، والمال الذي انتقل من يد صاحبه إلى من لا يستحقه.

إنَّ الرِّحْمَ لَا تُحْفَظُ بِالسَّكُوتِ عَنِ الظُّلْمِ، بَلْ بِالْعَدْلِ الَّذِي يَمْنَعُ الظُّلْمَ مِنْ تَسْمِيْمِهَا. وَمَا قِيَمَةُ اجْتِمَاعِ الْأُسْرَةِ إِذَا كَانَ الضَّعِيفُ فِيهَا يَجْلِسُ فَوْقَ حَقِّ مَسْلُوبٍ، وَيَتَسَمَّى حَتَّى لَا يَخْشُرَ مَا بَقِيَ مِنَ الْقَرَابَةِ؟

المال: حين تتحول الوسيلة إلى صنم

بعد ذكر النتائج وصلت السورة إلى الجذر: ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾. فالمال لا يأمر الإنسان بشيء؛ القلب هو الذي يمنحه سلطة الأمر. فإذا أحبه حبًّا تجاوز الحد، ضحى من أجله بالعدل والرحمة وصلته بالرحم. وليس المال شراً؛ به تحفظ الأنفس، وتقام المشروعات، ويغاث المحتاج، ويستغني الإنسان عن ذل السؤال. إنما الشر أن ينتقل من اليد إلى مركز القلب، وأن يصبح مقياساً للوجود كله. عندها لا يعود صاحبه يملك المال، بل يصير المال مالاً له؛ يحرسه من البذل، ويوقظه على الخوف، ويدفعه إلى جمع ما لا يحتاج إليه.

والزهد الذي تعلمنا إياه السورة ليس إظهار الفقر، ولا تعطيل أسباب الرزق، بل الحرية من عبودية المال. أن تكسبه من حلال، وتنبه بحلال، وتؤدي حقه، ثم لا تسمح له أن يقنعك بأن قيمتك تساوي رصيدك.

إنك لن تحمل مالك إلى الآخرة، لكنك تستطيع أن تحمل أثره. ما أنفقتَه في الحق يسبقك، وما حبسته يبقى للورثة، وما أخذته بغير حق يأتيك خصماً. لذلك قال النادم: ﴿يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾؛ أدرك أن المال الذي ظن أنه يدخره لحياته كان ينبغي أن يقدمه للحياة الحقيقية.

القيامة: حين تسقط الأسماء الكاذبة

ثم دكت الأرض دكاً دكاً. لم تسقط حضارة وحدها، بل سقط المسرح الذي توالى فوقه الحضارات. الأرض التي تنازع الناس على امتلاكها أزالَت معالم الملك، وصارت ساحةً للعرض على مالِكها الحقيقي.

في ذلك اليوم تسقط الألقاب والأرصدة والمراتب، ولا يبقى إلا العمل. يكشف أن الغنى لم يكن كرامةً بذاته، وأن الفقر لم يكن إهانة، وأن القوي الذي أخاف الناس كان أضعف من أن يدفع عن نفسه، وأن اليتيم الذي لم يجد من يحميه في الدنيا لم يكن منسياً عند الله.

ويجيء أمر الله ويحضر الفصل والقضاء على الوجه اللائق بجلاله، وتأتي الملائكة صفّاً صفّاً. هناك ينتظم الوجود حول الحقيقة التي عاش الناس يهرون منها: الحكم لله، والأمر لله، والملك لله.

وُجَاءَ يَوْمئذٍ بِجَهَنَّمَ، فيتذكر الإنسان. لكنه يتذكر بعد أن فقدت الذكرى قدرتها على تغيير المصير. كان يستطيع في الدنيا أن يجعل التذكر توبةً، والندم إصلاحاً، والمعرفة عملاً؛ أما هناك فلا يبقى إلا انكشاف الحقيقة.

والعبارة التي تختصر المأساة كلها: ﴿وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾. لم يكن ينقصه العقل دائماً، بل كان ينقصه أن يستعمله في الوقت الذي ينفع. عرف وسوف، وسمع وأعرض، ووعد نفسه بالعودة حين تستقر الحياة، ولم يعلم أن الحياة لا تستقر لأحد، وأن التأجيل قد يصير عادةً تستمر حتى الموت.

إن أعظم الخسارات ليست أن يفقد الإنسان فرصةً دنيوية، بل أن يرى الحقيقة في اللحظة التي لم تعد رؤيتها إيماناً ولا العمل بها ممكناً. لذلك فإن كل قارئ لهذه الآيات ما يزال أمام نعمة كبرى: أن التذكر ينفعه الآن. ما دام حياً يستطيع أن يرد المال، ويصل الرحم، ويكرم اليتيم، ويطعم المسكين، ويصلح ما أفسده، ويبدأ ولو تأخر.

﴿يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾: إعادة تعريف العمر

ربما تكون هذه الآية هي المركز الوجودي للسورة كلها. فالإنسان يكتشف أن ما كان يسميه الحياة لم يكن إلا فرصةً للتقديم لحياته. الدنيا مر، لكنها مر ممتلئ بالمسؤولية؛ قصيرة، لكنها قادرة على أن تلد أبدية الإنسان.

والقرآن لا يريد بهذا أن نحيا الدنيا بوجوه عابسة، ولا أن نهجر عمرانها؛ بل أن نحياها في اتجاه صحيح. نعمل، ونبني، ونحب، ونزرع، لكننا لا نجعل الممر وطناً نهائياً، ولا نبيع الخلود من أجل لحظة.

كل شيء يمكن أن يصير تقدماً للحياة: عمل متقن، ومال حلال، وعدل مع خصم، ورحمة بضعيف، وصبر على بلاء، وتوبة بعد ذنب، وابتسامة ترد إلى روح منهكة بعض نورها. ليست الآخرة بعيدةً عن تفاصيلنا اليومية؛ إنها تشكل منها.

وقد يكون أعظم ما ينبغي أن نندم عليه في الدنيا هو الوقت الذي عشنا فيه بعيداً عن المعنى. لا لأن كل لحظة لم تكن عبادة شعائرية، بل لأنها كانت خالية من الوجهة. أكلنا ولم نشكر، وامتلكنا ولم ننفع، وتكلمنا ولم نزن الكلمة، ومررنا بالناس دون أن نرى ما تحمله وجوههم من قصص.

الحياة التي تستحق اسمها ليست كثرة الأيام، بل امتلاؤها بالحضور. ورب لحظة صدق مع الله أعادت معنى سنوات، ورب توبة صادقة أنقذت بقية العمر من التيه.

النفس المطمئنة: جواب السورة عن سؤال النجاة

بعد الخوف كله جاء الجواب: ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾. لم تقل السورة إن الناجي هو الذي امتلك أكثر، أو عاش بلا ابتلاء، أو لم يعرف الحزن. الناجي نفس بلغت الطمأنينة بالله؛ لم يفتنها الغنى، ولم يهزمها الضيق، ولم يخذعها الطغيان، ولم يستعبد بها المال.

الطمأنينة ليست هدوء الحياة، بل رسوخ المعنى. قد تعصف الرياح حول المؤمن، لكنه يعرف أن الليل يسري. قد يرى الظالم عالياً، لكنه يعرف أن ربه بالمرصاد. قد يضيق رزقه، لكنه يرفض أن يفسر الضيق بوصفه إهانة. قد يفقد عزيزاً، لكنه يعرف أن الموت رجوع لا سقوط في العدم.

ولم تصل النفس إلى الطمأنينة لأنها امتلكت تفسيراً لكل ما حدث لها، بل لأنها عرفت ربها. اطمأنت إلى حكمته حين غابت عنها الحكمة، وإلى رحمته حين غلبها الألم، وإلى عدله حين رأت الظلم منتصراً في جولة.

والطمأنينة ليست اعتزلاً للواجب؛ بل هي التي تمنح الإنسان قوة العمل دون عبادة النتائج. يقول الحق ولو تأخر أثره، ويزرع ولو لم يدرك الحصاد، ويكرم اليتيم ولو لم يصفق له أحد. يكفيه أن الله يرى، وأن العمل الصادق لا يضيع.

﴿أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكَ﴾: المصير الذي يعيد تفسير الرحلة

كل طرق السورة تنتهي عند هذا الرجوع. الفجر يرجع بالنور إلى الأرض، والليل يسري إلى منتهاه، والحضارات ترجع إلى حكم ربها، والإنسان يرجع بعد عطاء ومنع، والأرض ترجع إلى صورة أخرى بعد الدك، ثم ترجع النفس إلى ربها.

إننا نخرج إلى الدنيا محمولين بعناية الله، ونمضي في طرقها ونحن نظن أحياناً أننا ابتعدنا كثيراً، ثم نكتشف أن كل خطوة كانت تسير بنا إلى الموعد. ليس السؤال: هل سنرجع؟ فالرجوع حتمي؛ إنما السؤال: بأي قلب نرجع؟

أنرجع بقلب يقول: ﴿يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾، أم بقلب يسمع: ﴿رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾؟ أنرجع بالأموال التي أكلنا حقوقها، أم بالأموال التي قدمنا أثرها؟ أنرجع بأسماء الناس الذين كسرناهم، أم بدعوات من جبرنا قلوبهم؟

الموت ليس أول لقاء للعبد بربه؛ لقد كان يلقاه في الصلاة والدعاء والتوبة، وكان الله يفتح له أبواب العودة كلما ابتعد. لذلك كان الرجوع الأخير امتداداً لعلاقة العمر كلها. من كان يرجع في كل يوم، لم تكن الوجهة الأخيرة غريبةً عن قلبه.

﴿رَاضِيَةٌ مَرْضِيَّةٌ﴾: نهاية الصراع بين القلب والقدر

بلغت النفس مقام الرضا بعد أن عبرت ساحة الابتلاء. لم تعد تسأل عن حياتها من داخل الألم الجزئي، بل رأت النسيج كاملاً، فعرفت أن لطف الله كان يعمل حتى في المواضع التي ظنتها خالية من اللطف.

كم من منع حماها، وتأخير أنضجها، وانكسار ردها إلى حقيقتها! وكم من دعاء ظنت أنه لم يُجب، بينما كانت الإجابة تأتي في صورة لم تتوقعها، أو تُدخر لها فيما هو أبقي!

إن الرضا لا يعني أن الجراح لم تكن مؤلمة، بل أن الألم لم يكن عبثاً. ولا يعني أن الظلم صار مقبولاً؛ فالظلم سيحاسب، والمظلوم سيعوض. إنما يعني أن حكمة الله أحاطت بما لم يحيط به نظر الإنسان.

ثم فوق رضا النفس يأتي الرضوان الأعظم: ﴿مَرْضِيَّةٌ﴾. رضي الله عنها، فإذا فقدت بعد ذلك؟ لو اجتمع الناس على مدح إنسان ولم يرض الله عنه، فما نفع مدحهم؟ ولو أساء الناس فهم عبداً والله راضٍ عنه، فأبي حكم يستطيع أن يضره في الحقيقة؟

إن طلب رضا الله يحرر النفس من عبودية الصورة، ويمنحها شجاعة أن تكون صادقةً ولو لم تكن مرضيةً عند الجميع. وهي لا تعتمد مخالفة الناس، ولا تستكبر عن النقد، لكنها لا تبيع حقًا لتشتري قبولًا عابرًا.

﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي﴾: العبودية بوصفها ذروة الكرامة

هرب الطغاة من العبودية فهلكوا، وقبلتها النفس المطمئنة فُشِّرَتْ. أراد فرعون أن يكون ربًّا، فانتهى غريقًا، وأرادت النفس أن تكون عبدةً لله، فقبل لها: ﴿فِي عِبَادِي﴾.

العبودية لله ليست إلغاءً للإنسان، بل تحريراً له من كل من يريد أن يحتل موضع الله في قلبه. من كان عبداً لله لا يكون عبداً للمال ولا للسلطة ولا للجمهور. قد يحتاج إلى الأشياء والناس، لكنه لا يمنحهم حق تعريف قيمته أو مصيره.

وفي إضافة العباد إلى الله شرف لا يبلغه لقب أرضي. كل الألقاب تُنزع عند الموت، أما وصف العبودية الصادقة فيصحب النفس إلى دار الكرامة. كان بعض الناس ينجل من أن يبدو عبداً، بينما كانوا في الحقيقة عبيداً لشهوات صغيرة؛ وكانت النفس المؤمنة تعلن عبوديتها لله، فتحررت من العالم.

ثم إن الدخول ﴿فِي عِبَادِي﴾ يكشف أن النجاة ليست عزلة فردية. من سار إلى الله دخل في جماعة الطهر؛ مع الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين. ورب مؤمن عاش في الدنيا غريباً، لا يجد من يفهم صراعه أو يشاركه يقينه، لكنه لم يكن بلا أهل؛ كان أهله ينتظرونه في جهة الغيب.

﴿وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾: الوطن الذي لا يسري ليله

هذه هي آخر وجهة في سورة الفجر: جنة الله. بدأ الطريق بفجر يعقبه ليل، وانتهى بفجر لا يعقبه ليل؛ بدأ بأرض ستُدك، وانتهى بجنة لا تزول؛ بدأ بإنسان يظن المال كرامةً، وانتهى بنفس أكرمها الله بالقرب والرضوان.

في الجنة تنتهي مخاوف الفقد. لا يموت حبيب، ولا يهرم جسد، ولا يضيق رزق، ولا ينكسر قلب، ولا يحمل إنسان في صدره غلاً. كل ما كان يعكر لذة الدنيا يُنزع، فلا يكون النعيم كثرة الأشياء وحدها، بل سلام النفس معها.

وأعظم من نعيم الجنة الحسي أنها ﴿جَنَّتِي﴾؛ دار كرامة الله ورضاه. بالإضافة وحدها تحمل من الأُنس ما تقتاصر دونه الأوصاف. فليس أهلها ضيوفاً عند ملك يمل أو يضيق، بل في رحمة أرحم الراحمين، في نعيم لا ينفد وخير لا ينقطع.

لقد بحث الإنسان في الدنيا عن بيت آمن، لكنه كان كلما أحبه خاف أن يتركه. وبحث عن علاقة لا تنتهي، فلم يجد في عالم الفناء شيئاً لا يهدده الفراق. الجنة هي جواب هذا الحنين العميق؛ البيت الذي لا يغادره، واللقاء الذي لا يقطعه موت، والصبح الذي لا يبتلعه مساء.

السورة بوصفها ميزاناً للحضارة

سورة الفجر ليست خطاباً فردياً عن النجاة وحدها، بل تقدم ميزاناً متكاملًا لقيام الحضارات وسقوطها. الحضارة لا تُقاس بأعمدها قبل عدلها، ولا بقدرتها على شق الصخور قبل قدرتها على كف الظلم، ولا بأوتاد سلطانها قبل مقدار الحرية والكرامة التي تمنحها للإنسان.

عاد بنت، وثمود نحتت، وفرعون نظم سلطاناً واسعاً؛ ومع ذلك سماهم القرآن مفسدين، لأن التقدم الأدائي لا يعوض الانحطاط الأخلاقي. تستطيع أمة أن تكون متقدمة في الأشياء ومتأخرة في الإنسان؛ تعرف كيف تصنع القصور، ولا تعرف كيف تصنع الأمان؛ تتقن إدارة الموارد، ولا تقيم العدل في توزيعها.

والميزان الحضاري للسورة يظهر عند أربعة مواضع: اليتيم، والمسكين، والميراث، والمال. كيف يعامل المجتمع من فقد القوة؟ كيف يستجيب للجوع؟

كيف يحمي الحقوق عند انتقال الثروة؟ وكيف يضبط حب المال حتى لا
يبتلع الضمير؟

ليست هذه قضايا جانبية، بل مؤشرات على صحة البنية كلها. حين يُهمل
اليتيم، يُعلن المجتمع أن القيمة للقوة؛ وحين يُترك المسكين، يعلن أن الملكية بلا
مسؤولية؛ وحين يُؤكل الميراث، تصبح القرابة غطاءً للاستغلال؛ وحين يُحب
المال حباً جمّاً، يتحول الإنسان نفسه إلى وسيلة للربح.

ومن هنا نفهم أن سقوط الحضارة قد يبدأ من بيت حُرمت فيه امرأة من
حقها، ومن طفل تُرك بلا تعليم، ومن عامل لم يأخذ أجره، قبل أن يظهر في
اهتزاز الدولة. الفساد الأخلاقي يتراكم في التفاصيل، ثم يستيقظ يوماً في صورة
انهيار كبير.

السورة بوصفها علاجاً للقلق

تقدم سورة الفجر كذلك خريطة عميقة لعلاج القلق الإنساني. فالإنسان
يقلق من طول الليل، فتقول له: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسَّرَ﴾. ويقلق من قوة الطغاة،
فتريه مصارع عاد وثمود وفرعون. ويقلق من غياب العدالة، فتقول: ﴿إِنَّ رَبَّكَ
لَبَلِصَادٍ﴾. ويقلق حين يضيق رزقه، فتصح له أن التضيق ليس إهانة.
ويقلق من الموت، فتسميه رجوعاً إلى الرب.

لكنها لا تعالجه بطمأنة مخدرة، بل تطالبه بمسؤوليته. لا تقل له فقط: لا تخف من الفقر، بل قل للغني: أطعم المسكين. لا تقل له فقط: سيهلك الطاغية، بل حذره أن يحمل بذرة الطغيان في نفسه. لا تقل له: ستدخل الجنة مهما فعلت، بل تضع أمامه طريقاً من العدل والتوبة والعمل.

الطمأنينة القرآنية ليست فصلاً بين القلب والواقع، بل إعادة اتصال صحيحة بينهما. إنها تمنح الإنسان قلباً لا يتخطم بالواقع، وضميراً لا يهرب منه.

السورة بوصفها دعوة إلى النقد الذاتي

من السهل أن نقرأ عاداً وثمود وفرعون في وجوه خصومنا، وأن نرى حب المال في غيرنا، وأكل الميراث عند مجتمع آخر. لكن القرآن لا يفتح لنا سجل الآخرين كي نغلق سجل أنفسنا. كل آية مرآة قبل أن تكون سلاحاً.

أين عاد الصغيرة في نفسي حين أتباهى بما أعطيت؟ وأين ثمود حين أنجح في السيطرة على الأشياء وأفشل في السيطرة على غضبي؟ وأين فرعون حين أرفض أن يعارضني من هم تحت سلطتي؟ وأين أكل التراث حين أبرر نصيباً زائداً؟ وأين عدم إكرام اليتيم حين أعطيه شيئاً وأشعره بالمهانة؟

إن أعظم قراءة للقرآن هي التي تعيد القارئ إلى موضع الاتهام المسؤول، لا التي تمنحه شعوراً دائماً بالبراءة. ليس المقصود أن يكره نفسه، بل أن يطهرها؛ والنفس لا تنطهر ما دامت بارعةً في اكتشاف كل عيب إلا عيبها. وحين ينقد المؤمن نفسه لا يفعل ذلك لهدمها، بل لينقذها قبل أن تقف في موضع تقول فيه: ﴿يَا لَيْتَنِي﴾. النقد الذاتي في ضوء الوحي رحمة؛ محكمة مبكرة يملك فيها المتهم أن يتوب ويصحح ويعيد الحقوق.

ماذا يبقى من سورة الفجر في حياتنا؟

يبقى منها أن لا نمنح الليل صفة الأبدية. إذا اشتد بنا حزن أو استحکم طغيان، تذكرنا أن الليل يسري، وإن لم نر حركته. ويبقى منها أن الزمن ليس وعاءً فارغاً. نغتم مواسم الخير، ولا نؤجل بناء النفس إلى عمر لا نضمنه. ويبقى منها ألا ننهر بالقوة إذا انفصلت عن الحق. فكم من عماد صار أثراً، وصخر صار قبراً لأحلام أصحابه، ووتد عجز عن تثبيت عرش! ويبقى منها أن نقرأ الرزق باعتباره ابتلاءً، إذا أُعطينا سألنا عن الشكر، وإذا مُنعنا حفظنا كرامتنا، وسعينا دون أن نتهم ربنا.

ويبقى منها أن نقيس أخلاقنا بمعاملة الضعفاء: يتيم لا يدافع عن حقه،
ومسكين يستحي من السؤال، ووارث لا يستطيع مقاومة الأقوى.

ويبقى منها أن نضع المال في موضعه. نطلبه من حلال، ونستغني به عن
السؤال، ونقيم به حاجتنا، لكننا لا نسمح له أن يشتري ضمائرنا.

ويبقى منها أن نتذكر دك الأرض قبل أن تُدك. نُخفف الخصومات على
الزائل، ونرد المظالم، ونعرف أن كل ما في اليد سيخرج منها.

ويبقى منها أن نقدم لحياتنا الآن. لا ننتظر موتاً قريباً كي نتوب، ولا فراغاً
كاملاً كي نعبد، ولا مالاً كثيراً كي نعطي. نبدأ بما نملك في اللحظة التي نحن
فيها.

ويبقى منها أن نبني النفس المطمئنة: نفساً لا تتأله بالنعمة، ولا تنهار
بالحنّة، ولا تتبع الحق بالخوف، ولا تحمل كراهية الطغاة حتى تتخلق بأخلاقهم.
الكلمة الأخيرة

يا من يطول ليلك، ليس الظلام خاتمة السماء؛ ثمة فجر يسير إليك وإن لم
تسمع خطاه.

ويا من أعطاك الله، لا تجعل النعمة مرآةً لكبريائك؛ اجعلها باباً يمر منه
الخير إلى غيرك.

ويا من ضيق عليه، لست مهاناً عند الله لأن يدك خفيفة من المال؛ قد يكون قلبك أثقل في الميزان من خزائن كثيرة.

ويا من تملك أمر ضعيف، تذكر أن الله بالمرصاد، وأن قوتك الحالية ورقة امتحان لا تاج خلود.

ويا من ظلمت، لا تجعل اليأس يمنح الظالم نصراً ثانياً داخل قلبك؛ لك رب لا ينام عن حقك، ولا تضع عنده دمعتك.

ويا من أخطأت، ما دمت حياً فلم تصل بعد إلى ﴿وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾؛ تستطيع أن تذكر الآن، وأن تجعل الندم توبةً، والتوبة إصلاحاً، والإصلاح فجراً جديداً.

ويا أيها النفس التي أتعبتها الطرق، لا تبجي عن طمأننتك في شيء كتب عليه الزوال. اجعلي الله وجهتك، والحق ميزانك، والرحمة خُلقك، والآخرة حياتك، حتى إذا انتهى الليل كله، سمعت النداء الذي يستحق أن يُبدل له العمر:

﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۖ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ۖ وَادْخُلِي جَنَّاتٍ ۖ﴾

سُورَةُ الْفَجْرِ

عندها لا يكون الفجر ضوءاً ظهر عند طرف السماء ثم غاب، بل حقيقةً اكتملت في القلب، ومصبيراً انفتح على الخلود؛ ويعرف الإنسان أن كل ليلٍ صبر عليه لله، وكل حق حفظه، وكل قلب جبره، وكل مال طهره، وكل شهوة قاومها، إنما كان خطوةً في طريق العودة.

وهناك، عند باب الرضا، تنتهي رحلة سورة الفجر؛ فلا طغيان يبقى، ولا فقر يؤلم، ولا أرض تُدك تحت القدم، ولا نفس تخاف من القادم. هناك يعود العبد إلى ربه، ويدخل في عبادته، ويدخل جنته، ويطلع عليه الفجر الذي لا تغرب شمسُه أبداً.

تمت، بحمد الله وفضله،